توني موريسون

ليكن الرب في عون الطفلة

نوبل للآداب
1993

ترجمة: بثينة الإبراهيم



ليكن الرب في عون الطفلة

رواية

توني موريسون

ترجمة

بثينة الإبراهيم



/ رواية

توني موريسون
ترجمة بثينة الابراهيم
الطبعة الأولى 1437 / 2016
ردمك 978-9938-880-57-1



دار أثر للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية - الدمام
تلفون: 00966505774560
الموقع الإلكتروني: www.darathar.net
البريد الإلكتروني: info@darathar.net

إليك

«دعوا الأولاد يأتون إليّ ولا تمنعوهم»

إنجيل لوقا، الإصحاح ١٨: ١٦

الجزء الأول

سويتنس

إنه ليس خطئي، لذا لا يمكنك لومي. لم أفعلها ولا أعرف كيف حدث ذلك. لم يستغرق الأمر أكثر من ساعة بعد أن سحبوا الطفلة من بين رجليّ لأعرف أن هناك خطأ ما، خطأ جدًا. كانت سوداء جدًا لدرجة أرعبتني، سوداء مثل منتصف الليل، سوداء مثل سودانية. لي بشرة فاتحة وشعر ناعم، كنت من النوع الذي نسميه خلاسية، وكذلك كان والدلولا آن. ليس هناك أحد في عائلتي له بشرة بهذا اللون. أظن أن لون القطران هو الأقرب، ومع ذلك لم يكن شعرها يتماشى مع البشرة، لقد كان مختلفًا، ناعمًا لكنه متموج مثل تلك القبائل العارية في أستراليا. قد تظن أنها وراثة راجعة، لكن لمن؟ عليك أن ترى جدتي، كانت كأنها بيضاء ولم تعد تتحدث إلى أبنائها، و تعيد أي رسالة تتلقاها من أمي وخالاتي دون فتحها. وأخيرًا فهمن الرسالة دون رسالة وتركنها وشأنها. كل الخلاسيين والمهجنين فعلوا ذلك في ماضيهم تقريبًا، فإن كان لديهم نوع الشعر الصحيح فالأمر منتهٍ. هل يمكنك أن تتخيل كم من البيض تجري في عروقهم الدماء الزنجية وتختبئ بها؟ خمن، عشرون بالمئة كما سمعت. كان يمكن لأمي، لولا ماي، أن تحيا بسلام لكنها اختارت ألا تفعل، وأخبرتني عما دفعته ثمنًا لذلك القرار. حين ذهبت

وأبي إلى المحكمة لعقد قرانهما، كان هناك إنجيلان، وكان عليهما أن يضعا يديّهما على الإنجيل المخصص للزنوج، أما الآخر فقد كان لأيدي البيض. الإنجيل! هل تصدق؟ كانت أمي مدبرة منزل لزوجين من البيض، كانا يتناولان الطعام الذي تعده ويصران على أن تفرك ظهريهما حين يجلسان في حوض الاستحمام، وحده الله يعلم أي أفعال حميمة أخرى جعلاها تقوم بها، لكن لا يسمح لها بلمس الإنجيل نفسه.

قد يظن بعضكم أنه من السيء أن نجمع أنفسنا في مجموعات بحسب لون البشرة- كلما كانت أفتح كان ذلك أفضل- في النوادي الاجتماعية وفي المناطق السكنية والكنائس والنوادي النسائية وحتى في مدارس الملونين. ولكن كيف يمكننا أن نحتفظ بشيء من الكرامة إذن؟ كيف يمكنك أن تتفادى أن يُبصق عليك في الصيدلية، والتدافع بالمرافق في موقف الحافلة، والمشي على قنوات الصرف ليحظى البيض بكل الرصيف، ودفع خمسة سنتات في البقالة مقابل كيس الورق الذي يقدم مجانًا للمتسوقين البيض؟ ناهيك عن الشتائم. سمعت عن هذا كله وأكثر، أكثر بكثير. ولكن بسبب لون بشرة أمي لم يمنعها أحد من تجربة القبعات في المتاجر أو استخدام حمام السيدات فيها، وتمكن أبي من تجربة الحذاء في القسم الأمامي من متجر الأحذية، وليس في الغرفة الخلفية، ولم يكن أحدهما ليسمح لنفسه بالشرب من صنبور المياه المخصص «للملونين فقط»، حتى لو مات ظمأً.

أكره قول ذلك، ولكن منذ البداية في جناح الولادة أحرجتني الطفلة لولا آن. كانت بشرتها بداية فاتحة مثل كل الأطفال حتى الأفارقة لكنها تغيرت سريعًا، وظننت أنني سأجن حين رأيتها تتحول إلى الأسود المزرق أمام عينيّ. أعرف أنني كنت مجنونة لدقيقة ذات مرة

لأني وضعت بطانية على وجهها وضغطتها -لثوانٍ قليلة فقط- لكني لم أستطع فعل ذلك رغم أنني تمنيت لو أنها لم تولد بهذا اللون الرهيب، وفكرت أيضًا بتركها في ملجأ للأيتام في مكان ما، وكنت خائفة أن أكون إحدى أولئك الأمهات اللاتي يتركن أولادهن على عتبات الكنيسة. سمعت مؤخرًا عن زوجين في ألمانيا أبيضين مثل الثلج، ولهما طفلان ببشرة داكنة ولم يتمكن أحد من تفسير ذلك، توءم كما أظن، أحدهما أبيض والآخر ملون، غير أني لا أعرف إن كان ذلك صحيحًا، كل ما أعرفه أنّ إرضاعها بالنسبة لي كان كما لو أن زنجيًا صغيرًا يمص حلمتي، فقررت التحول إلى الرضاعة الصناعية حالما أصل المنزل.

زوجي، لويس، يعمل حمالًا وحين عاد من محطة القطار نظر إليّ كما لو أنني مجنونة، ونظر إليها كما لو أنها من كوكب المشتري. لم يكن رجلًا كثير اللعن، لذا عندما قال: «ما هذا بحق الجحيم؟» عرفت أننا في مشكلة. وهذا ما أثاره، هذا ما أشعل الشجار بيننا، لقد حطم ذلك زواجنا إلى كِسر، لقد قضينا ثلاث سنوات طيبة معًا ولكن حين ولدت وجه إليّ اللوم وعامل لولا آن كما لو أنها غريبة، وأكثر من ذلك، كما لو كانت عدوًا.

لم يمسسها أبدًا، ولم أحاول إقناعه أنني لم أعبث أبدًا مع أي رجل آخر، لكنه واثق أنني أكذب. تجادلنا وتجادلنا إلى أن أخبرته أنها ورثت سوادها من عائلته هو لا عائلتي، وعندها ازداد الأمر سوءًا، ساءت جدًا حتى هجرنا ورحل، وكان عليّ أن أبحث عن منزل أرخص. كنت أعرف أنني لا ينبغي عليّ اصطحابها معي حين قابلت المالك، فتركتها لدى قريبتي المراهقة لتجالسها، فعلت ما بوسعي ولم أصطحبها خارج المنزل كثيرًا، لأنني لو دفعتها بالعربة فلا بد أن الأصدقاء والغرباء

سيميلون ويسترقون النظر ليقولوا شيئًا لطيفًا، فيصابون بالذعر ويقفزون إلى الوراء متجهمين. هذا مؤلم. كان من الممكن أن أكون أنا جليسة الأطفال لو كانت بشرتانا بالعكس. لقد كان الأمر صعبًا بما فيه الكفاية بالنسبة لامرأة ملونة، حتى لو كنت خلاسية، في محاولة استئجار منزل في منطقة ملائمة من المدينة. بالعودة إلى التسعينيات عند ولادة لولا آن كان القانون يحظر ممارسة التمييز العنصري في تأجير المنازل، و لم يكن كثير من المالكين يعيرونه اهتمامًا، كانوا يختلقون الأعذار لطردك، لكنني كنت محظوظة مع السيد لي. أعرف أنه زاد الإيجار سبعة دولارات عما كتبه في الإعلان، وأنه يصاب بالجنون إذا تأخرت دقيقة في سداد الإيجار.

طلبت منها أن تناديني «سويتنس» بدلًا من أمي أو ماما، لقد كان ذلك أكثر أمانًا. فأن تكون بهذا السواد ولها شفتان أراهما غليظتين جدًا وتناديني ماما سيشوش الناس، بالإضافة إلى أن لون عينيها عجيب، سوداء كالغراب بمسحة من الزرقة، كان فيهما شيء غامض أيضًا.

لذا لم يكن هناك سوانا نحن الاثنتين لوقت طويل وليس عليّ أن أصف لك كم هو قاسٍ أن أكون زوجة مهجورة. أظن أن لويس شعر بالاستياء قليلًا بعد هجرنا هكذا لأنه عثر على عنواني بعد أشهر قليلة وبدأ بإرسال المال مرة كل شهر، رغم أنني لم أطلب منه ذلك ولم أتجه للقضاء للحصول عليه. كانت صكوك الخمسين دولارًا التي يرسلها وما أحصل عليه من عملي الليلي في المستشفى قد أمن لنا أنا ولولا آن الرعاية، وهو أمر جيد. أتمنى لو أنهم يتوقفون عن تسمية ذلك بالرعاية ويعودون لاستخدام الكلمة التي كانت متداولة حين كانت أمي طفلة، لقد كانوا يستخدمون «الراحة» وهي تبدو أفضل بكثير، لأنها كانت

متنفسًا قصير المدى إلى أن ترتب أمورك. كما أن موظفي الرعاية لئيمون مثل بصقة. عندما حصلت أخيرًا على عمل ولم أعد بحاجة إليهم، كنت أجني أموالًا أكثر مما فعلوا. أظن أن لؤمهم قد ضاعف رواتبهم الضئيلة، ولذا كانوا يعاملوننا كمتسولين. وبخاصة حين ينظرون إلى لولا آن ثم إليّ كما لو أنني كنت أخدعهم أو شيء من هذا القبيل. تحسنت الأمور كثيرًا لكن كان علي أن أظل حذرة، حذرة جدًا في تربيتها، علي أن أكون صارمة، صارمة جدًا. كانت لولا آن بحاجة لتتعلم كيف تحسن السلوك، وكيف تبقي رأسها منخفضًا ولا تتورط في المشاكل. لا أبالي بعدد المرات التي تغير فيها اسمها، فقد كان لونها صليبًا عليها حمله دومًا. لكن ذلك ليس خطئي، ليس خطئي، ليس خطئي، ليس كذلك.

برايد

أنا خائفة. هناك أمر سيء يحدث لي. أشعر كما لو أنني أذوب، لا يمكنني أن أفسر ذلك لك لكني أعرف متى بدأ. بدأ بعدما قال: «لستِ المرأة التي أريد».

«ولا أنا».

وما زلت لا أعرف لمَ قلت ذلك. لقد خرج ذلك من فمي. لكنه حين سمع جوابي الجسور نظر إلي نظرة بغيضة قبل أن يرتدي سرواله الجينز، ثم قبض على قميصه وحذائه وعندما سمعت الباب يصفق تساءلت لجزء من الثانية إن كان لا ينهي جدالنا السخيف فحسب، بل ينهينا، علاقتنا. لا يمكن لذلك أن يحدث. قد أسمع دوران المفتاح في أي لحظة ونقر الباب الأمامي حين يفتح ويغلق، لكني لم أسمع شيئًا طوال الليل، لا شيء على الإطلاق. ماذا؟ ألست مثيرة بما يكفي؟ أو جميلة بما يكفي؟ ألا يمكن أن يكون لي رأيي الخاص؟ أفعل الأشياء التي يرفضها؟ حالما استيقظت في الصباح شعرت بالغضب. سعيدة لأنه رحل فقد كان واضحًا أنه يستغلني لأني أملك المال والفرج. كنت غاضبة للغاية، ولو رأيتني لظننت أنني أمضيت تلك الأشهر الستة معه

في زنزانة انفرادية دون استدعاء أو محامٍ، وأبطل القاضي فجأة الأمر كله، ألغى القضية أو رفض الاستماع مطلقًا. بكل الأحوال رفضت أن أندب أو أنتحب أو أتهم. لقد قال شيئًا ووافقت. تبًا له. بالإضافة إلى أن علاقتنا لم تكن مذهلة جدًا، ولا حتى الجنس الخطر باعتدال الذي اعتدت أن أمتع نفسي به. حسن، على أية حال لم يكن مثل تلك الإعلانات المزدوجة الصفحات في مجلات الأزياء، كما تعرف، أزواج يقفون نصف عراة في الموج، عنيفين جدًا ولئيمين بمعنى الكلمة، جنسانيتهم مثل البرق والسماء تظلم لتظهر لمعان بشراتهم. أحب هذه الإعلانات. لكن علاقتنا لم تبلغ حتى مستوى أي أغنية قديمة من الريذم آند بلوز(*)، بعض النغمات بإيقاع منتظم ليخلق الحمى. إنها لم تكن حتى كلمات حلوة من أغنية بلوز في الثلاثينيات: «حبيبي حبيبي لم تعاملني هكذا؟ أفعل كل ما تقوله، أذهب أينما تريدني أن أذهب». لماذا أظل أقارن علاقتنا بإعلانات المجلات والموسيقى لست أدري، لكن كان يدغدغني أن أختار «أريد أن أراقص أحدهم(**)».

كانت تمطر في اليوم التالي. كرات تنقر على النوافذ ويتبعها خطوط صافية من الماء. تجاهلت إغراء إلقاء نظرة عبر الزجاج إلى الرصيف تحت شقتي . كما أنني كنت أعرف ما الذي يوجد في الخارج هناك، أشجار نخيل بغيضة المنظر تحدد الشارع، ومقاعد في تلك الحديقة الصغيرة المهملة، والقليل من المارة وفضة من البحر في البعيد. قاومت الاستسلام لأي أمنية بعودته، وحين تطفو موجة صغيرة من افتقاده كنت أصدها. فتحت زجاجة من نبيذ بينو جريجيو عند الظهيرة تقريبًا

---

* نمط غناء مزيج من البلوز والجاز.

** أغنية لويتني هيوستن.

وغصت في أريكتي التي كانت مخداتها الحريرية والمزأبرة مريحة مثل أي ذراعين. تقريبًا. لأن علي الاعتراف أنه رجل وسيم، بلا أدنى عيب، عدا ندبة صغيرة على شفته العليا وأخرى قبيحة على كتفه، فقاعة حمراء برتقالية ولها ذيل. باستثناء ذلك، كان رجلًا رائعًا من رأسه إلى أخمص قدميه. ولم أكن أنا نفسي قبيحة، لذا يمكنك أن تتخيل كيف بدونا كثنائي. ثملت قليلًا بعد كأس أو اثنتين من النبيذ، وقررت الاتصال بصديقتي بروكلين لأخبرها بكل ما حدث، وكيف أنه آلمني أكثر من لكمة بست كلمات: أنت لست المرأة التي أريد، وكم ضايقتني جدًا موافقتها. غبية جدًا. لكن بعد ذلك غيرت رأيي بشأن الاتصال بها، تعرف كيف يكون الأمر حينها فلا شيء جديد. لقد خرج فقط ولا أعرف لماذا، كما أن هنالك الكثير مما كان يجري في المكتب بالنسبة لي لأزعج صديقتي وزميلتي العزيزة بثرثرة عن انفصال آخر. وخاصة الآن، فأنا المديرة الإقليمية الآن، وهذا مثل أن تكون قبطانًا، لذا علي أن أبقي على العلاقة الطيبة بطاقم العمل. شركتنا «سيلفيا المتحدة» هي شركة صغيرة لمستحضرات التجميل، لكنها آخذة بالازدهار وتخطي مصاعبها أخيرًا والتخلص من ماضيها السيء. كانت فيما مضى «مشدات سيلف للنساء المميزات» في الأربعينيات، لكنها غيرت اسمها وملكيتها إلى سيلفيا للملابس، ثم إلى سيلفيا المتحدة، قبل إطلاق ست خطوط مميزة رائعة لمستحضرات التجميل، أحدها لي، سميته «يو جيرل: مستحضرات تجميل لألفيتك الشخصية» وهي للفتيات والنساء ولكل أنواع البشرة الأبنوسية والليمونية والحليبية. وهي ملكي، كلها ملكي، الفكرة والعلامة التجارية والجملة.

لم أستطع منع نفسي من الابتسام وأنا أحرك أصابع قدمي على

المخدة الحريرية لرؤية ابتسامة أحمر الشفاه على كأس النبيذ وأفكر «ما رأيك بذلك يا لولا آن؟ هل فكرت يومًا أنك ستكبرين وتصبحين مثيرة أو ناجحة هكذا؟» ربما كانت المرأة التي أرادها، لكن لولا آن برايدويل لم تعد هنا ولم تكن امرأة أبدًا. كنت لولا آن حين كنت مراهقة في السادسة عشرة وقد تخليت عن هذا الاسم الريفي الغبي حالما أنهيت الثانوية. كنت آن برايد لعامين إلى أن ذهبت لمقابلة عمل من أجل وظيفة في المبيعات في «سيلفيا المتحدة»، واختصرت اسمي دفعة واحدة إلى برايد، دون أن يحتاج أي أحد أن ينطق شيئًا قبل أو بعد هذا الاسم وحيد المقطع السهل التذكر. أحبه العملاء والمندوبون، لكنه تجاهله. كان يدعوني «حبيبتي» معظم الوقت. «هيا يا حبيبتي، تعالي يا حبيبتي» وأحيانًا « يا فتاتي» بالتشديد على الياء. اليوم الوحيد الذي قال فيه «امرأة» كان يوم انفصالنا.

كلما شربت مزيدًا من النبيذ الأبيض شعرت بالتحرر أكثر. لا مزيد من العبث مع رجل غامض دون وسائل مساعدة مرئية، مجرم سابق إن كان ثمة أحد كذلك، رغم أنه كان يضحك كلما حاصرته بالسؤال حول كيف يقضي وقته حين أكون في العمل: يشعر بالكسل، يتسكع، يقابل أحدًا ما؟ قال إن جولاته بعد الظهر من يوم السبت إلى المدينة لم تكن لرؤية مراقب السلوك أو استشاري للاستشفاء من المخدرات، ومع ذلك لم يخبرني أبدًا أين كان يذهب. كنت أخبره بكل شيء عن نفسي، ولم يبح بشيء لذا اختلقت قصة بحبكة تلفزيونية، لا بد أنه كان مخبرًا بهوية جديدة، محام مشطوب من جدول المحامين، مهما يكن، لم أهتم بذلك حقًا.

في الحقيقة كان توقيت رحيله ممتازًا بالنسبة لي، فبمغادرته لحياتي

وشقتي أصبح بإمكاني التركيز على إطلاق «يو جيرل» وأن، على نحو مماثل بالأهمية، أفي بوعد قطعته لنفسي قبل أن ألتقيه بوقت طويل، وقد تشاجرنا حوله في الليلة التي قال فيها» أنت لست المرأة...» وحسب تقويم موقع بريزون إنفو/ إطلاق السراح المشروط، لقد حان الوقت. كنت أخطط لهذه الرحلة منذ عام، منتقية بعناية ما قد يحتاجه من أطلق سراحه شرطيًا: وفرت مبلغًا قدره خمسة آلاف دولار على مدى سنوات، وقسيمة هدية من خطوط طيران كونتينانتال بقيمة ثلاثة آلاف دولار، ووضعت علبة ترويجية من «يو جيرل» في كيس من لويس فويتون، وكل ذلك يمكنه أن يأخذها إلى أي مكان. أشعريها بالراحة على أية حال، ساعديها لتنسى وتضع حدًا للحظ السيء واليأس والضجر. حسن، ربما ليس للضجر فالسجن ليس ديرًا. لم يفهم لم كنت مصرة على الذهاب وفي الليلة التي تشاجرنا فيها حول وعدي، رحل هاربًا. أظنني كنت أهدد كبرياءه بفعل أمر جيد لم يكن موجهًا له، وغد أناني. كنت أنا من يدفع الإيجار وليس هو، وأدفع للخادمة أيضًا. حين كنا نذهب للنوادي والحفلات الموسيقية كنا نذهب بسيارتي الجاغوار الجميلة أو بسيارات أستأجرها، كنت أشتري له القمصان الجميلة رغم أنه لم يرتدها أبدًا، وكنت أقوم بالتسوق. بالإضافة إلى أن الوعد وعد، خاصة إذا كان وعد المرء لنفسه.

حين كنت أرتدي ثيابي استعدادًا للرحلة لاحظت أمرًا غريبًا، كل شعرة من شعر عانتي اختفت، لم تختف كما لو كان ذلك بالحلاقة أو الشمع لكن كما لو أنها انمحت، كما لو أنها لم تكن هناك أبدًا. أخافني ذلك، فوضعت أصابعي في شعر رأسي لأرى إن كان يتساقط، لكنه كان كثيفًا و ناعمًا كما كان دومًا. حساسية؟ مرض جلدي ربما؟ أقلقني ذلك

لكن لم يكن لدي الوقت لفعل شيء أكثر من القلق والتخطيط لرؤية طبيب للأمراض الجلدية. علي أن أذهب لأصل في الموعد.

أظن أن الآخرين قد يحبون المناظر المحيطة بهذا الطريق السريع لكنه مثقل بالمسارات والمخارج والطرق الموازية والمعابر الفوقية والإشارات والعلامات التحذيرية كما لو أنك مضطر لقراءة الصحيفة أثناء القيادة. مزعج. إلى جانب الإشارات الكهرمانية كانت الفضية والذهبية تقفز عاليًا. ظللت في المسار الأيمن وخففت من سرعتي لأنني أعرف من خلال قيادتي سابقًا على هذا الطريق أن المخرج المؤدي إلى نوريستاون سهل تجاوزه وليس للسجن علامة على وجوده في العالم على بعد ميل من منعطف المخرج. أظنهم لا يرغبون أن يعرف السياح أن قسمًا من الصحراء الكاليفورنية المستصلحة مشهورة باحتجازها للنساء الشريرات. مركز ديكاجون الإصلاحي للنساء، الواقع خارج نوريستاون والذي تملكه شركة خاصة، يحبه سكان المنطقة للأعمال التي يقدمها: خدمة الزوار، الحراس، الطاقم الإكليركي، عاملو المقصف، مقدمو الرعاية الصحية ومعظم عمال البناء الذين يصلحون الطرق والسياج ويضيفون الجناح تلو الآخر لاحتواء الفيضان المتنامي من النساء العنيفات والمخطئات اللاتي يرتكبن جرائم أنثوية قاتلة، ولحسن حظ الولاية فإن الجريمة تدفع لذلك.

في المرات التي ذهبت فيها إلى ديكاجون قبلًا، لم أحاول مرة الدخول بحجة أو بأخرى، حينها كنت أود فقط رؤية أين احتجزت السيدة الوحش - هكذا يسمونها- لخمسة عشر عامًا من حكمها البالغ خمسة وعشرين عامًا مدى الحياة. هذه المرة كان الأمر مختلفًا، فقد أطلق سراحها شرطيًا وبحسب ملاحظات المراجعات الجزائية ستتخطى

صوفيا هكسلي القضبان التي دفعتها خلفها.

قد تظن أن سيارتي الجاغوار لن تصمد لكون ديكاجون كله قائم على مال متحد ملكية عامة، لكن خلف الحافلات ؟ وسيارات التويوتا القديمة والشاحنات المستعملة كانت سيارتي الصقيلة الرمادية بلون الجرذ بلوحة أرقام أنيقة تبدو مثل مسدس. لكنها لم تكن فاسدة بقدر سيارات الليموزين البيضاء التي رأيتها تركن هناك، بمحركاتها الهادرة و سائقيها المتكئين على جوانبها البراقة. قل لي، من يحتاج سائقًا يقفز ليفتح الباب وينطلق سريعًا؟ سيدة ثرية لا تطيق صبرًا للعودة إلى ثيابها الداخلية الكتانية المصممة لها في ماخورها الشاهق الراقي؟ أو ربما مراهقة مومس تتوق للعودة إلى فناء نادٍ خاص فخم مبتذل حيث يمكنها الاحتفال بإطلاق سراحها مع أصدقائها بتمزيق ثيابها الداخلية التي تحمل رقم السجن. لا تستحق منتجات سيلفيا المتحدة. فخط منتجاتنا مثير كفاية لكنه ليس غاليًا كفاية. مثل كل العاملات بالجنس، ستظن العاهرة الصغيرة أنه كلما كان السعر مرتفعًا أكثر كانت الجودة أعلى. لو أنها تعرف فقط. ومع ذلك فقد تشتري بعضًا من منتجات «يو جيرل»، بعض ظلال العيون البراقة أو ملمع الشفاه برقائق الذهب.

ليس هناك سيارات ليموزين اليوم، إلا إن حسبنا سيارة لينكولن. هناك غالبًا سيارات تويوتا مستعملة وشيفروليه قديمة، وبالغون صامتون وأطفال عصبيون، ورجل مسن يجلس في موقف الحافلة يحفر في علبة حبوب الإفطار شيروز بحثًا عن الحلقة الأخيرة من نخالة الشوفان الحلوة، كان يرتدي حذاء قديمًا بأربطة وسروالًا نظيفًا جديدًا من الجينز، كانت قبعة البيسبول والصدار البني فوق قميص أبيض تشي بأنه اشتراها من متجر جيش الخلاص غير أن سلوكه كان راقيًا بل أنيقًا.

كانت ساقاه متصالبتين وكان يتفحص قضمة الحبوب الجافة كما لو أنها كانت عنبًا مختارًا جلبه حراس الأرض إلى عرشه من أجله خصيصًا.

إنها الرابعة، لن يستغرق الأمر طويلًا الآن. لن يطلق سراح صوفيا هكسلي، المعروفة برقم ٠٠٧١١٤٠، في مواعيد الزيارة. عند الساعة الرابعة والنصف تمامًا لم يبق إلا سيارة لينكولن، التي قد يكون صاحبها محاميًا يحمل حقيبة من جلد القاطور مليئة بالأوراق والمال والسجائر. السجائر لعملائه والمال لشهوده والأوراق ليبدو كما لو كان يعمل.

«هل أنت بخير يا لولا آن؟» كان صوت النائب العام ناعمًا ومشجعًا، لكني كنت أسمع صوتها بصعوبة. «ليس هنالك شيء يدعو للخوف، لا يمكنها أن تؤذيك».

لا، لا يمكنها، اللعنة، ها هي. الرقم ٠٠٧١١٤٠. حتى بعد خمسة عشر عامًا لا يمكنني أن أخطئها ببساطة، بسبب طولها، ست أقدام على الأقل. لا شيء قلص العملاق الذي أذكر أنه كان أطول من الحاجب والقاضي والمحامين وتقريبًا بطول رجل الشرطة. كان زوجها الوحش الآخر فقط يماثلها في الطول. لم يشك أحد أنها كانت المخلوق الغريب الأطوار الذي دعاها به الآباء المرتجفون غضبًا. كانوا يهمسون «انظروا إلى عينيها». في كل مكان من المحكمة، في حمام السيدات أو على المقاعد التي تحدد أرجاء القاعات كانوا يهمسون: «باردة كالأفعى» «في العشرين؟ كيف يمكن لأحد في العشرين من عمره أن يفعل ذلك بالأطفال؟» «هل تمزح؟ انظر إلى هاتين العينين فقط، كبيرة كالقذارة» «لن يتجاوز ابني الصغير هذا الأمر أبدًا» «شيطان» «عاهرة».

تبدو هاتان العينيان الآن كعيني أرنب أكثر من كونهما عيني أفعى، لكن الطول ما يزال نفسه. كل شيء عدا ذلك قد تغير. فهي نحيلة

كالحبل، ثياب داخلية بقياس ١ وحمالة صدر بقياس ▯ إن كانت ترتدي واحدة. ويمكنها بالطبع أن تستخدم بعضًا من مرطب الجلام جلو. وسيمنح بعض مملس التجاعيد وأحمر الشفاه البرونزي شيئًا من اللون لبشرتها البيضاء.

حين خرجت من الجاغوار لم يخطر لي ولم أبالِ إن كانت تتذكرني، فسرت نحوها فقط وقلت: «هل تحتاجين من يوصلك؟»

رمتني بنظرة سريعة غير مكترثة وأدارت نظرها نحو الطريق «لا، لست بحاجة».

كان فمها مرتعشًا، وقد كان قبل قاسيًا، نصلًا حادًا مشحوذًا لتقطيع طفل إلى شرائح. قليلًا من البوتوكس وبعضًا من أحمر الشفاه المطفي، دون لمعة، قد يلطف شفتيها ولربما أثر في هيئة المحلفين لصالحها لولا أنه لم يكن هنالك يو جيرل حينئذٍ.

«هل هناك من سيقلك؟» ابتسمت

قالت: «سيارة أجرة».

طريف. إنها تجيب عن أسئلة غريب بشكل مطيع كما لو أنها اعتادت ذلك. فليس هناك «ما شأنك؟» أو حتى «من أنت بحق الجحيم؟» بل واصلت الشرح أكثر: «اتصلت بسيارة أجرة، أعني أن المكتب فعل».

حين اقتربت ودنوت من لمس ذراعها وصلت سيارة الأجرة وقبضت على مقبض الباب بسرعة الطلقة، ألقت بحقيبتها الصغيرة وصفقت الباب. نقرت على النافذة صارخة: «انتظري، انتظري». فات الأوان، فقد تجاوز السائق المنعطف بسرعة سيارة سباق من طراز ناسكار.

انطلقت إلى سيارتي، لم يكن اللحاق بهم صعبًا، بل حتى أنني تجاوزت سيارة الأجرة لئلا أظهر أنني ألاحقها، واكتشفت أن هذا كان خطأ. حين كنت على وشك دخول منعطف المخرج رأيت سيارة الأجرة تنطلق أمامي إلى نوريستاون. قرعت الحصى عجلات السيارة حين ضغطت على المكابح، وعدت إلى الوراء ولحقت بهم. كان الطريق إلى نوريستاون محاطًا بخط من المنازل الأنيقة الموحدة بنيت في الخمسينيات وأضيف إليها باستمرار رواق مغلق الجانب ومرآب موسع بما يكفي لسيارتين وفناء خلفي. كان الطريق يبدو مثل رسم لأطفال الروضة ببيوته الزرقاء الفاتحة أو البيضاء أو الصفراء وأشجار الصنوبر والأبواب الحمراء بلون الشمندر القائمة وسط حدائق واسعة. كل ما ينقص هو الشمس التي تشبه الكعك المحلى وعصيّ الأشعة حولها. خلف المنازل، قرب المجمع الشاحب والحزين مثل جعة «خفيفة»، تعلن لافتة بداية البلدة، وقربها لافتة أخرى أكبر لمطعم ونزل إيفا دين. انعطفت سيارة الأجرة وتوقفت أمام المدخل، فترجلت ودفعت للسائق. تبعتها وأوقفت سيارتي بعيدًا خلف المطعم، كانت هناك سيارة واحدة أخرى فقط في المواقف، سيارة سوداء ذات دفع رباعي. كنت متأكدة أنها ستقابل أحدهم، لكن بعد قضاء دقائق قليلة عند مكتب الاستقبال، ذهبت مباشرة إلى المطعم واختارت طاولة قرب النافذة. أستطيع رؤيتها بوضوح ومراقبتها وهي تطالع قائمة الطعام مثل طالب يخضع لدروس تقوية في اللغة أو الإنجليزية كلغة ثانية، تقرأ بتحريك الشفاه، وتمرر أصابعها على الأسطر. كم تغيرت. هذه هي المعلمة التي كانت تقطع التفاح إلى حلقات لتشكيل حرف (O) لأطفال الروضة، و توزع بسكويت بريتزلز ليتعرفوا الحرف (B)، وتقص قطع البطيخ الأحمر لتشكيل حرف (Y)، وكل ذلك من أجل تهجئة كلمة ولد

(Boy)، الذي كانت تحبه أكثر حسب همسات النساء أمام المغاسل في حمام السيدات. كانت الفاكهة كوسيلة إغواء جزءًا مهمًا من الشهادة في المحاكمة.

أنظر إليها وهي تأكل، والنادل يواصل وضع الطبق تلو الآخر أمامها. يبدو ذلك منطقيًا نوعًا ما، فهذه هي الوجبة الأولى خارج السجن، كانت تزدرد الطعام مثل لاجئ، مثل شخص كان يعوم في البحر لأسابيع دون طعام أو ماء، ويوشك على التساؤل كيف سيبدو طعم لحم رفيقه المحتضر في القارب قبل أن ينكمش. لم ترفع عينيها عن الطعام، تطعن وتقطع شرائح وتغرف من هذا الصحن وذاك، لا تشرب الماء ولا تطلي الخبز ببعض الزبدة، كما لو أنها لا تريد لشيء أن يعطل سرعة أكلها. انتهت الوجبة بأكملها في غضون عشر أو اثنتي عشرة دقيقة، ثم دفعت المال وغادرت بسرعة إلى الممشى. ماذا الآن؟ المفاتيح في يدها، حملت حقيبتها على كتفها، توقفت ثم انعطفت إلى فسحة بين جدارين من الجص. ترجلت من السيارة وسرت بسرعة خلفها إلى أن سمعت صوتها وهي تتقيأ، فاختبأت خلف سيارة الدفع الرباعي إلى أن تخرج.

كان الباب الذي فتحته مكتوبًا عليه ٣-أ. أنا مستعدة، وحرصت على أن يكون طرقي للباب واثقًا وقويًا دون أن يكون مهددًا. «نعم؟» كان صوتها مرتعشًا، صوتًا متواضعًا لشخص تدرب على الطاعة الآلية.

«سيدة هكسلي افتحي الباب من فضلك».

صمت ثم «أنا أوه، أنا مريضة بعض الشيء».

فقلت: «أعلم»، وكان هناك شيء من الحكم في صوتي، آملةً أن تظن

أن الأمر متعلق بالقيء الذي تركته على الرصيف. «افتحي الباب».

فتحت الباب ووقفت هناك حافية القدمين وهي تحمل منشفة في يدها، مسحت فمها قائلة «نعم؟»«علينا أن نتحدث».

«نتحدث؟» أخذت ترمش بسرعة لكنها لم تطرح السؤال الصحيح: «من أنت؟»

دفعتها متجاوزة إياها، وتقدمت حاملة حقيبة لويس فويتون.

«أنت صوفيا هكسلي، أليس كذلك؟»

هزت رأسها، وكان هناك وميض خفيف للخوف في عينيها، أنا سوداء كمنتصف الليل وأرتدي ثيابًا بيضاء لذا فلربما ظنت أنه زي موحد وأنني أتبع لسلطة ما، أردت تهدئتها فرفعت حقيبة التسوق وقلت» هيا، لنجلس، لدي شيء من أجلك». لم تنظر إلى الحقيبة ولا إلى وجهي، كانت تحدق بحذائي ذي الكعب العالي القاتل والمدبب على نحو خطير.

سألتني: «ماذا تريديني أن أفعل؟»

يا له من صوت ناعم ولطيف، كانت تعرف بعد قضاء خمسة عشر عامًا خلف القضبان أن لا شيء يقدم مجانًا، لا أحد يتخلى عن شيء دون مقابل للمتلقي، مهما كان ذلك، سجائر، مجلات، سدادات نسائية قطنية، طوابع بريدية، ألواح شوكولاتة مارس أو علبة من زبدة الفول السوداني، كلها تأتي بخيوط قوية مثل خيط صنارة السمك.

«لا شيء، لا أريد منك فعل شيء».

انحرفت عيناها الآن عن حذائي إلى وجهي، عينان بلهاوان بلا

فضول، فأجبت السؤال الذي قد يسأله شخص طبيعي. «رأيتك تغادرين ديكاجون، ولم يكن هناك من ينتظرك، فعرضت أن أوصلك».
فعبست: «هذه أنت؟»

«نعم أنا».

«هل أعرفك؟»

«اسمي برايد».

ضاقت عيناها وقالت: «هل يفترض أن يعني ذلك لي شيئًا؟» فقلت «لا» وابتسمت. «انظري ماذا جلبت لك». لم أستطع المقاومة فوضعت الحقيبة على السرير، أدخلت يدي وأخرجت من الأعلى علبة الهدية من يو جيرل، ووضعت مظروفين؛ كان داخل المظروف النحيل قسيمة هدية خطوط الطيران وأما المنتفخ ففيه خمسة آلاف دولار، حوالي مئتي دولار لكل سنة لو أنها قضت مدة حكمها كاملة.

حدقت صوفيا بما وضعت كما لو أن الأشياء كانت موبوءة، «لمَ كل هذا؟»

أتساءل إن كان السجن قد أثر في عقلها، فقلت لها: لا عليك، إنها أمور بسيطة لمساعدتك».

«لمساعدتي في أي شيء؟»

« لتبدئي، تعرفين، حياتك».

«حياتي؟» هنالك خطأ ما. تبدو كما لو أنها بحاجة إلى تعريف بالكلمة.

«نعم، حياتك الجديدة» ما زلت أبتسم.

«لماذا؟ من أرسلك؟» بدت عندها مهتمة لا مذعورة.

رفعت كتفيّ: «أظن أنك لا تذكريني، ولم ستفعلين؟ لولا آن، لولا آن برايدويل، في المحاكمة؟ كنت أحد الأطفال الذين ....»

كنت أدور بلساني في الدم، كانت أسناني كلها هناك، لكني لا أستطيع النهوض، أشعر أن جفني الأيسر يغلق وذراعي اليمنى مشلولة، فتح الباب وألقيت علي كل الهدايا التي جلبتها، واحدة تلو الأخرى، حتى حقيبة لويس فويتون، صفق الباب ثم فتح ثانية. حط حذائي الأسود المدبب الكعب على ظهري قبل أن يتدحرج قرب ذراعي اليسرى، أمسكت به وارتحت عندها لمعرفة أنها تتحرك بعكس الأخرى، حاولت أن أصرخ «النجدة» لكن فمي كان يعود لشخص آخر. زحفت بضعة أقدام وحاولت النهوض، ساقاي تتحركان، جمعت كل الهدايا وألقيت بها في الحقيبة و مرتدية فردة من حذائي وتاركة الأخرى خلفي عرجت إلى سيارتي. لم أشعر بشيء، لم أفكر بشيء، ليس قبل أن أرى وجهي في المرآة الجانبية. كان فمي يبدو كما لو أنه محشو بكبد نيئة، وانسلخ الجلد عن جانب وجهي كله، وكانت عيني اليمنى بحجم حبة الفطر. كل ما أردت فعله هو الخروج من هنا، الاتصال بالطوارئ ٩١١ سيستغرق وقتًا طويلًا ولا أريد مدير نزل غبي أن يحدق بي. شرطة، لا بد أن هناك بعضًا منهم في هذه البلدة. كان التشغيل وتغيير السرعة والقيادة بيدي اليسرى بينما تستلقي الأخرى ميتة قرب فخذي يتطلب تركيزًا. كلها. لذا خطر لي بعد أن ابتعدت في نوريستاون ورأيت سهمًا يشير إلى مركز الشرطة أنهم سيكتبون تقريرًا ويستجوبون المعتدى عليه وسيلتقطون صورة لوجهي المحطم كدليل، وماذا لو نشرت الصحف المحلية القصة وبجانبها صورتي؟ إحراج لن يكون شيئًا قياسًا إلى السخرية من يو

جيرل التي ستصبح بووو جيرل.

كانت مطارق الألم تجعل من الصعب علي الوصول إلى هاتفي الخلوي والاتصال ببروكلين، الشخص الوحيد الذي يمكنني الوثوق به، تمامًا.

بروكلين

إنها تكذب. كنا نجلس في هذه العيادة الغبية بعد أن قدت لساعتين لأعثر على هذه البلدة، ثم كان علي أن أوقف سيارتها خلف مركز الشرطة المغلق. إنه مغلق طبعًا، فاليوم هو الأحد، اليوم الذي لا تفتح فيه إلا الكنائس ومركز وال مارت للتسوق. كانت مضطربة حين وجدتها تنزف وتبكي من عين واحدة، فقد كانت الأخرى متورمة جدًا لتذرف الدمع. يا للمسكينة! أتلف احدهم إحدى تلك العينين اللتين روعتا الجميع بغرابتهما، كبيرتين منحرفتين ومبطنتين قليلًا ولهما لون طريف، بالنظر إلى سواد بشرتها، أسميهما عيني مخلوق فضائي، لكن الرجال يرونهما رائعتين، بالطبع.

حسن، عندما وجدت عيادة الطوارئ الصغيرة هذه المقابلة للمجمع التجاري مزدحمة المواقف، كان لا بد من أساعدها لتمشي. كانت تعرج مرتدية فردة حذاء واحدة، أخيرًا حصلنا على انتباه ممرضة لها عينا حشرة، أصابها الذهول لرؤيتنا نحن الاثنتين: امرأة بيضاء بجدائل صغيرة شقراء، والأخرى سوداء جدًا بشعر مموج حريري. استغرق توقيع الأوراق وإظهار بطاقات التأمين وقتًا طويلًا، ثم جلسنا لانتظار الطبيب المناوب الذي يعيش، لا أعرف، بعيدًا في بلدة وضيعة

أخرى. لم تقل برايد شيئًا حين كنت أقود لكنها بدأت كذبتها في غرفة الانتظار.

همست: «أنا محطمة».

فقلت: «لا لست كذلك، انتظري بعض الوقت، ألا تذكرين كيف كانت جريس تبدو بعد عملية وجهها؟»

فردت: «حطم وجهها جراح، وحطم وجهي معتوه».

ضغطت عليها: «أخبريني إذن، ما الذي حدث يا برايد، من هو؟»

«عمّن تسألين؟» ولمست وجهها بنعومة وهي تحاول التنفس عبر فمها.

«الرجل الذي ضربك حتى الموت تقريبًا».

أخذت تسعل بعض الوقت فمررت لها منديلًا. «وهل قلت إنه رجل؟ لا أذكر أنني قلت إنه كان رجلًا».

«هل تقصدين أن امرأة فعلت ذلك بك؟»

فقالت: «لا، لقد كان رجلًا».

«هل كان يحاول اغتصابك؟»

«أظن ذلك. أظن أن أحدهم أخافه فهرب، ضربني وهرب».

أترى ما أعنيه؟ لم تكن تلك كذبة جيدة، فأضغط أكثر. «ولم يأخذ حقيبتك أو محفظتك أو أي شيء؟»

غمغمت: «أظنه من الكشافة». كانت شفتاها متورمتين ولسانها يعجز عن نطق الأحرف الساكنة، لكنها تحاول الابتسام على مزحتها

الغبية.

«لمَ لم يبقَ أي كان الذي أخافه ويساعدك؟»

«لا أعرف! لا أعرف! لا أعرف!»

أخذت تصرخ وتتظاهر بالبكاء فتوقفت. لم تكن عينها المفتوحة الوحيدة قادرة على ذلك ولا بد أن فمها يؤلمها كثيرًا في الحديث. لم أنبس بكلمة لخمس دقائق، كنت فقط أقلب صفحات «ريدر دايجست»، ثم حاولت أن أجعل صوتي يبدو طبيعيًا وعاديًا بقدر استطاعتي، وقررت ألا أسألها لم اتصلت بي بدلًا من الاتصال بحبيبها.

«ماذا كنت تفعلين هنا على أية حال؟»

«أتيت لرؤية صديق». انحنت إلى الأمام كما لو أن معدتها تؤلمها.

«في نوريستاون؟ يعيش صديقك هنا؟»

«كلا، في مكان قريب».

«هل وجدته؟»

«وجدتها. لا لم أجدها أبدًا»

«من هي؟»

« امرأة أعرفها منذ وقت طويل، لم تكن هناك، ربما ماتت الآن».

كانت تعرف أنني أعرف أنها تكذب، لم لم يسرق من هاجمها المال؟ لا بد أن شيئًا ما أصاب عقلها وإلا فلماذا تخبرني أكاذيب لعينة كهذه؟ أظنها لا تكترث أبدًا بما أفكر فيه. حين حشرت تنورتها وبلوزتها البيضاوين في الكيس، عثرت على ما يقارب خمسة آلاف دولار ملفوفة

بشريط مطاطي، وقسيمة من خطوط الطيران وعينات من يو جيرل التي لم تطلق بعد، حسن؟ ليس هنالك فصيلة مما يفترض به أن يكون مغتصبًا يرغب بالحصول على كريم أساس نيود سكين جلو، لكن ماذا عن المال؟ قررت أن أترك الأمر وأنتظر حتى ترى طبيبًا.

بعد ذلك، حين حملت برايد مرآتي الصغيرة لترى وجهها، كنت أعرف أن ما رأته سيحطم قلبها، لقد كان ربع وجهها على ما يرام، أما الباقي فكان محفورًا. غرز سوداء قبيحة، عين متورمة، ضمادات على جبهتها، وشفاه أفريقية لا يمكنها أن تلفظ حرف النون في نيئة وهي ما كانت بشرتها تبدو عليه، كلها وردية وسوداء مزرقة. وأكثر الأمور سوءًا كان أنفها، تحت الشاش كان منخراها واسعين جدًا بحجم نصف كعكة باجل كمنخري قرد، وكانت عينها السليمة الجميلة منكمشة ومحتقنة وميتة فعليًا.

يجب ألا أقول هذا، لكن منصبها في «سيلفيا المتحدة» قد يمنح لآخر، فكيف ستقنع النساء بتحسين مظهرهن بمنتجات لا يمكنها تحسين مظهرها هي؟ ليس هناك ما يكفي من كريم أساس يو جيرل في العالم لتغطية ندبات عينيها وأنفها المكسور وبشرة وجهها المسلوخة حتى اللُحمة. وعلى فرض أن الكثير من التشوهات اختفت، ما تزال بحاجة إلى جراحة تجميلية ما يعني أسابيع وأسابيع من البطالة، متخفية خلف النظارات والقبعات الكبيرة، وقد يطلب مني أن أحل محلها، مؤقتًا بالطبع.

«لا أستطيع تناول الطعام، لا أستطيع الكلام، لا أستطيع التفكير».

كان صوتها متذمرًا وهي ترتعش.

لففت ذراعي حولها وهمست: «هي، يا صديقتي لا نريد حفلة للنواح، دعينا نخرج من هذا المكان الوضيع، ليس لديهم غرف خاصة وتلك الممرضة لديها قطعة خس عالقة بين أسنانها وأشك أنها غسلت يديها منذ تخرجها من دورة التمريض الشبكية».

توقفت برايد عن الارتعاش وعدلت الحمالة التي تحمل ذراعها الأيمن وسألتني: «لا ترين أن هذا الطبيب قام بعمل جيد؟»

قلت: «من يدري؟ في عيادة التخييم هذه؟ سآخذك إلى مستشفى حقيقي بمرحاض ومغسلة في الغرفة».

«أليس عليهم أن يجيزوا خروجي؟» بدت كطفلة في العاشرة من العمر.

«أرجوك، نحن مغادرتان الآن. انظري ماذا جلبت لك حين كانوا يخيطون جراحك، بلوزة ونعالًا. ليس هناك مستشفى لائق في هذه الأنحاء لكن هناك فرع محترم جدًا لوال مارت. هيا، استندي علي، أين وضعت فلورنس نايتنجيل(*) أغراضك؟ سنشتري بعض المثلجات أو شراب الفاكهة المثلج في طريقنا، أو الحليب المخفوق، أظن هذا دواء أفضل، أو عصير الطماطم أو حساء الدجاج ربما».

كنت أتنقل وأجمع أقراص الدواء والثياب حين كانت تتشبث برداء المستشفى المزهر القبيح ذاك. قلت:» أوه برايد» لكن بح صوتي «لا تكوني هكذا، كل شيء سيكون على ما يرام».

كان علي أن أقود ببطء، فكل مطب أو تغيير مفاجئ للمسار يجعلها

(*) فلورنس نايتنجل: ممرضة بريطانية خلال حرب القرم وهي رائدة التمريض الحديث وتعرف باسم سيدة المصباح

تجفل أو تنخر. كنت أحاول صرف انتباهها عن الألم.

«لم أكن أعلم أنك في الثالثة والعشرين، كنت أظنك بعمري، في الحادية والعشرين، رأيته على رخصة القيادة خاصتك، تعرفين، حين كنت أبحث عن بطاقة تأمينك».

لم تجبني، فواصلت محاولة جعلها تبتسم «لكن عينك السليمة تبدو في العشرين».

لم ينجح ذلك. بحق الجحيم. يبدو أنني أتحدث إلى نفسي، فقررت أن آخذها إلى البيت فقط وأجعلها ترتاح، وسأهتم بكل شيء في العمل. ستكون برايد في إجازة مرضية لوقت طويل، وعلى أحدهم أن يضطلع بمسؤولياتها، ومن يدري إلام سيؤول ذلك؟

برايد

إنها معتوهة حقًا، صوفيا هكسلي. هذا التغير السريع من سجينة سابقة خانعة إلى قاطور غاضب، من شفاه متهدلة إلى أنياب، من وتد إلى مطرقة. لم أر علامة أبدًا، فلم يكن هناك نظرة شريرة أو ليّ لأوتار الرقبة، لم يكن هناك تمديد لعضلات الكتف أو شفاه مرفوعة تظهر الأسنان، لم يشِ شيء بهجومها عليّ. لن أنسى ذلك أبدًا، وحتى لو حاولت ذلك ستمنعني الندبات ناهيك عن الخزي.

إن الذاكرة هي الأسوأ فيما يتعلق بالتعافي. كنت أضطجع طوال الوقت ما دام ليس هناك أمر ملح لفعله، فقد اهتمت بروكلين بتوضيح الأمر لطاقم الإدارة: محاولة اغتصاب فاشلة، وما إلى ذلك. إنها صديقة حقيقية ولا تزعجني مثل أولئك المزيفين الذين يأتون إليّ للتحديق بي وإظهار الشفقة علي. لا أستطيع مشاهدة التلفزيون، إنه ممل، معظم ما يعرض فيه دموي أو مذيعات بأحمر شفاه وأوراك. وما يعرض على أنه أخبار فهو إما ثرثرة أو خطب من الأكاذيب، كيف يمكنني أن آخذ المسلسلات البوليسية على محمل الجد إن كانت المحققات يلاحقن القتلة مرتديات أحذية بكعوب عالية؟ وأما القراءة فالمطبوعات تصيبني بالدوار، ولسبب ما لم أعد أحب الاستماع للموسيقى بعد الآن، فالأغاني الجميلة والعادية كلاهما يشعرني بالإحباط، والمقطوعات الموسيقية أسوأ. كما أن هناك أمرًا سيئًا قد أصاب لساني لأن براعمي

الذوقية قد اختفت، كل شيء يبدو طعمه كالليمون، عدا الليمون الذي يشبه طعمه الملح، والنبيذ مجرد عبث لأن الفيكودين يمنحني ضبابًا أكثر سماكة وأكثر راحة.

العاهرة لم تسمعني، لم أكن الشاهدة الوحيدة، الوحيدة التي حوّلت صوفيا هكسلي إلى ٠٠٧١١٤٠، كان هناك العديد من الشهادات الأخرى حول تحرشها بالأطفال، كان هناك على الأقل أربعة أطفال شهدوا بذلك. لم أسمع ما قالوه لكنهم كانوا يرتعشون ويبكون عندما غادروا قاعة المحكمة. حضنت العاملة الاجتماعية والأخصائية النفسية اللتان دربتانا الأطفال هامستين: «ستكون بخير، أبليت حسنًا»، لم تحضني أي منهما لكنهما ابتسمتا لي. من الواضح أن صوفيا هكسلي ليس لديها عائلة، حسن كان لها زوج في سجن آخر وما زال لم يطلق سراحه بعد سبع محاكمات. لم يكن أحد هناك للقائها، لا أحد، فلماذا لم تقبل المساعدة فقط بدلًا من العمل الذي قد يعرضونه عليها كموظفة استقبال أو عاملة تنظيف في مكان ما؟ لن ينتهي الأمر بالسجناء الأثرياء المطلق سراحهم شرطيًا إلى تنظيف المراحيض في مطعم وينديز.

كنت في الثامنة فقط حينها، كنت ما أزال لولا آن الصغيرة، حين رفعت ذراعي وأشرت إليها بإصبعي.

«هل المرأة التي رأيتها موجودة في هذه القاعة؟» سألتني المحامية التي تفوح منها رائحة التبغ.

فهززت رأسي.

«عليك أن تتحدثي يا لولا، قولي نعم أو لا».

«نعم».

«هل يمكنك أن تشيري لنا أين تجلس؟»

كنت أخشى أن أوقع كأس الماء الورقية التي أعطتني إياها المحامية.

«اهدئي، وخذي وقتك» قالت محامية الادعاء العام.

وأخذت وقتي فعلًا، كنت أقبض يدي إلى أن أصبحت ذراعي مستقيمة ثم مددت سبابتي. بو ! مثل مسدس بغطاء. حدقت بي السيدة هكسلي عندها وفتحت فمها كما لو أنها كانت ستقول شيئًا، كانت تبدو مصدومة وغير مصدقة، لكن إصبعي ما يزال يشير إليها وظل كذلك لوقت طويل إلى أن لمست المدعي العام يدي وقالت «شكرًا لك لولا» لتجعلني أخفض ذراعي. نظرت إلى سويتنس، كانت تبتسم كما لم أرها تفعل من قبل، تبتسم بشفتيها وعينيها، ولم يكن ذلك كل شيء، فقد ابتسمت لي كل الأمهات خارج قاعة المحكمة، ولمستني اثنتان منهن وعانقتاني، ورفع الآباء أصابع الإبهام لي، والأفضل من ذلك كله كان سويتنس. حين كنا ننزل درج من المحكمة أمسكت بيدي، يدي، لم تفعل ذلك قبلًا أبدًا وأدهشني ذلك بقدر ما أسعدني لأني كنت أعرف دومًا أنها لا تحب لمسي. يمكنني أن أقول ذلك، كان النفور يعلو وجهها حين كنت صغيرة وكان عليها أن تحممني وتغسلني بعد أن تدعكني - بفتور- بمنشفة مغطاة بالصابون. اعتدت أن أدعو لتلطم وجهي أو تصفعني لأشعر بلمستها فقط، كنت أتعمد ارتكاب الأخطاء لكن كان لديها طرق لمعاقبتي دون أن تمس بشرتي التي تكرهها، النوم دون عشاء، حبسي في الغرفة، لكن صراخها علي كان الأسوأ. حين يسيطر الخوف تكون الطاعة هي الخيار الوحيد للنجاة، وقد كنت بارعة فيها. كنت أحسن السلوك وأحسنه وأحسنه، وحين ذعرت لأن علي المثول أمام المحكمة فعلت تمامًا ما توقعته مني الأخصائيات النفسيات، ببراعة،

أعرف، لأن سويتنس بعد المحاكمة كانت لطيفة مثل أم.

لا أعرف، ربما كنت غاضبة من نفسي أكثر من غضبي على السيدة هكسلي. لقد عدت إلى لو لا آن التي لم تصد هجومًا أبدًا، أبدًا، استلقيت هناك فقط وهي تضربني بعنف. كان يمكن أن أموت على أرض غرفة ذلك النزل لولا أن وجهها تحول إلى أحمر بلون التفاح بسبب الإجهاد، لم أحدث جلبة، ولم أرفع يدًا حتى لأحمي نفسي عندما صفعت وجهي ثم لكمت صدري ثم نطحتني برأسها، كانت تلهث حين سحبتني ورمتني خارج الغرفة. ما زلت أشعر بأصابعها القاسية تشد الشعر خلف عنقي، وبقدمها على ظهري وما زلت أسمع صوت تحطم عظامي وهي تصطدم بالجدار، المرفق والفك. كنت أشعر أن ذراعيّ تنزلقان وتتشبثان لأتوازن، ولساني الذي يدور في الدم لتحديد موضع أسناني. حين صُفق الباب وفتح ثانية لترمي حذائي، زحفت بعيدًا مثل جرو مضروب بالسوط خائفة حتى من مجرد التأوه.

ربما كان محقًا. حين رحل تخطيت الأمر وتظاهرت أن الأمر ليس مهمًا.

كانت الرغوة المتدفقة من علبة معجون الحلاقة تجعله يضحك، لذا كان يصنع الرغوة من صابون الحلاقة وفرشاة جميلة مصنوعة من شعر الخنزير الناتئ من مقبض عاجي. أظنها ما تزال في سلة المهملات مع فرشاة أسنانه والمسن والموسى. الأشياء التي تركها حية جدًا، حان الوقت للتخلص منها كلها، لقد ترك كل شيء: أدوات النظافة والثياب وحقيبة قماشية فيها كتابان، أحدهما بلغة أجنبية والآخر كتاب شعر. رميتها كلها ثم التقطت من سلة المهملات فرشاة حلاقته والموسى ذات المقبض العظمي، وضعت كليهما في خزانة الأدوية وحين أغلقت بابها

نظرت إلى وجهي في المرآة.

«عليك ارتداء الأبيض دومًا يا برايد، الأبيض فقط، وكل شيء أبيض طوال الوقت». أصر جيري الذي يسمي نفسه مصمم الشخص الكامل، وقد استشرته حين كنت أسعى لتغيير شامل لمظهري قبل مقابلتي الثانية في «سيلفيا المتحدة».

قال لي «ليس بسبب اسمك(*) فحسب، بل بسبب ما يصنع من بشرتك التي بلون السوس أيضًا، والأسود هو الأسود الجديد، هل تفهمين ما أعنيه؟ انتظري. لونك كلون شراب الشوكولاتة من هيرشي أكثر من كونه بلون السوس، يحرض الناس على تخيل السوفليه بالشوكولاتة والقشدة المخفوقة في كل مرة يرونك فيها».

وجعلني هذا أضحك: «أو كعك الأوريو؟»

«أبدًا، بل شيء راقٍ، سكاكر، مغلفة بالشوكولاتة».

في البداية كان شراء ثياب بيضاء فقط أمرًا مملًا إلى أن اكتشفت الدرجات الكثيرة للون الأبيض: العاجي، الصدفي، المرمري، لون الورق، الثلجي، القشدي، البيج، لون الشمبانيا، الشبحي، العظمي. وصار التسوق أكثر متعة حين بدأت باختيار ألوان الإكسسوارات.

قال جيري ينصحني «اسمعي عزيزتي برايد، إن كان لابد من إضافة قطرة من الألوان اجعلي ذلك مقتصرًا على الحذاء أو حقيبة اليد، لكني سأختار أن يكونا باللون الأسود حين لا ينفع الأبيض ببساطة. ولا تنسي: لا مساحيق تجميل، ولا حتى أحمر شفاه أو كحل، لا شيء».

---

* برايد Bride تعني عروس وهو هنا ربط بين اسمها وارتداء الأبيض.

فسألته عن المجوهرات، الذهب، الماس؟ دبوس زينة من الزمرد؟

«لا، لا» ورفع يديه عاليًا «لا مجوهرات مطلقًا، ربما قرطا لؤلؤ صغيران، لا، ولا حتى ذلك، أنت فقط يا فتاة، أسود وأبيض، نمر في الثلج، وجسدك؟ وتلك العينان الذئبيتان؟ أرجوك!»

أخذت بنصيحته ونجحت. كنت أحظى بنظرات متكررة في كل مكان أذهب إليه لكنها ليست كتلك التي تشي بالاشمئزاز التي حصلت عليها حين كنت طفلة، كانت هذه نظرات ولهة مأخوذة وجائعة. كما أن جيري، من حيث لا يعلم، منحني اسمًا لخط المنتجات، يو جيرل (أنت يا فتاة). بدا وجهي جديدًا تقريبًا في المرآة، عادت شفاهي إلى طبيعتها، وكذلك أنفي وعيني. أضلاعي فقط ما تزال رقيقة، وفوجئت لرؤية أن الجلد المسلوخ على وجهي قد شفي أسرع من كل شيء، كنت تقريبًا أبدو جميلة ثانية، فلماذا ما زلت حزينة؟ فتحت خزانة الأدوية باندفاع وأخرجت فرشاة حلاقته، تلمستها بأصابعي، كانت شعراتها الناعمة مثيرة ومهدئة، قربت الفرشاة من ذقني و ضربت بها كما اعتاد أن يفعل، وحركتها إلى أسفل فكي، ثم إلى شحمة أذني، وشعرت بالوهن لسبب ما. صابون، أحتاج رغوة. ففتحت صندوقًا أنيقًا يحوي أنبوبًا من رغوة الجسم «للبشرة التي يحبها»، فعصرته على صحن الصابونة وبللت فرشاته، مددت الرغوة على وجهي، مقطوعة الأنفاس. مددت الرغوة على خديّ وتحت أنفي، أعرف أن ما أفعله جنون لكني نظرت إلى وجهي في المرآة، بدت عيناي حالمتين و أكثر اتساعًا، ولم يشفَ أنفي فحسب بل كان رائعًا، وبدت شفتاي في الرغوة البيضاء مغريتين للتقبيل فعلًا فأتحسسهما بطرف إصبعي الصغير، لا أريد أن أتوقف لكن يتعين علي ذلك. أمسكت بالموسى خاصته، كيف كان يحملها؟ كان له حركة

بالأصابع لا أذكرها، عليّ أن أتمرن، وفي أثناء ذلك مسكت بالحافة غير الحادة وحفرت مسارات في الشوكولاتة الداكنة عبر دوامات من الرغوة البيضاء، ورششت الماء وغسلت وجهي، كان الرضا الذي أعقب ذلك حلوًا جدًا جدًا.

هذا ا العمل من المنزل ليس سيئًا مثلما ظننت، ما زلت أمتلك الصلاحيات رغم أن بروكلين تراجع قراراتي وتلغي بعضًا منها، ولم أمانع. أنا محظوظة لأنها تدعمني، بالإضافة إلى أنه كلما اعتراني الإحباط وجدت العلاج مخبأ في الحقيبة الصغيرة التي تحوي عدة حلاقته، لا أكاد أستطيع الانتظار حين أرغي الماء الصابوني الدافئ لأمرر الفرشاة ثم الموسى، التوليفة من الإثارة والتهدئة التي يمنحني كلاهما إياها. دعني أتذكر بلا كدر الأوقات التي كنت أمرح فيها وأتألم.

«إنها جميلة نوعًا ما تحت كل ذلك السواد» كما تقول الجارات وبناتهن. لم تحضر سويتنس يومًا لقاء أولياء الأمور والمعلمين أو مباريات الكرة الطائرة. شجعت على أخذ دروس في إدارة الأعمال لكن ليس في الجامعة بل في معهد بدلًا من قضاء أربع سنوات في الجامعات الحكومية، ولم أفعل شيئًا من ذلك. حصلت على عمل في المستودعات بعد عدد من الردود بالرفض، لم أحظ بعمل كبائعة أبدًا حيث يراني الزبائن، وكنت أرغب أن أكون في قسم مستحضرات التجميل غير أني لم أجرؤ على طلب ذلك، وأصبحت بائعة فقط بعد حصول الفتيات البيضاوات الغبيات على ترقية أو فشلهن فشلًا ذريعًا فقرروا تعيين أحد مطلع على المخزن. حتى المقابلة في «سيلفيا المتحدة» بدأت على نحو سيء، فقد تفحصوا أسلوبي وثيابي وطلبوا مني العودة لاحقًا، واستشرت جيري حينها، وحين كنت أعبر البهو لأصل إلى مكتب من سيجري المقابلة،

رأيت تأثيري: عيون متسعة بالإعجاب، وابتسامات وهمسات: «واو!» «أوه، يا جميلتي». وترفعت في وقت قصير إلى منصب مدير إقليمي، فقال جيري: «أرأيت؟ الأسود يبيع، إنه السلعة الأكثر إثارة في العالم المتحضر، على الفتيات البيض وحتى السمراوات أن يتعرين ليحصلن على هذا النوع من الاهتمام».

صدق أو لا تصدق، لقد صنعني ذلك، أعاد صنعي. بدأت أمشي بشكل مختلف، ليس بتمايل ولا باندفاع بحوضي إلى الأمام كما لو كنت أجري، بل كنت أمشي ببطء وتركيز. توثب الرجال وسمحت لهم بالإمساك بي، لفترة على أية حال إلى أن أصبحت حياتي الجنسية أشبه بمشروب غازي للحمية، حلو بشكل خادع وتنقصه القيمة الغذائية. يشبه أكثر لعبة بلاي ستيشن تحاكي النشوة الآمنة للعنف الافتراضي وقصيرة مثله. كان كل عشاقي من نمط واحد: ممثلين مستقبليين، مغني راب، رياضيين محترفين، عازفين يتوقون للوصول إلى فرجي أو لصك راتبي كنوع من المخصصات، وآخرين فعلوا ذلك مسبقًا واعتبروني وسامًا، شاهدًا لامعًا على بطولاتهم.

لم يكن أي منهم معطاء أو مساعدًا، ولم يبال أحدهم بما أفكر، بل كيف أبدو. كانوا يمزحون أو يحدثوني كطفلة أثناء محادثات كنت أراها جادة قبل أن يعثروا على دعامة لكبريائهم في مكان آخر. أذكر موعدًا بالتحديد، طالب في كلية الطب أقنعني بالانضمام إليه في زيارة لمنزل والديه شمالًا، وحالما قدمني اتضح لي أنني كنت هناك لأروّع عائلته، وسيلة تهديد لهذا الثنائي الأبيض المسن اللطيف.

كان يكرر: «أليست جميلة؟ انظرا إليها، أمي؟ أبي؟» كانت عيناه تشعان بالضغينة.

لكنهما تفوقا عليه بدفئهما ولباقتهما، حتى إن كان ذلك زائفًا. كانت خيبته واضحة، وكُبت غضبه قليلًا. أوصلني والداه إلى محطة القطار، ربما كي لا أصدق دعابته العنصرية الفاشلة عنهما، وشعرت بالراحة حتى وأنا أعلم ما الذي ستفعله الأم بكوب الشاي الذي استخدمته.

هكذا كان المشهد مع الرجال.

ثم جاء هو، بوكر، بوكر ستاربيرن.

لا أود التفكير به الآن، وكيف يبدو كل شيء فارغًا ضئيلًا جامدًا، لا أريد أن أتذكر كم كان وسيمًا وكاملًا باستثناء ندبة الحرق القبيحة تلك على كتفه، كنت أدلك كل إنش من بشرته الذهبية وأمص شحمتي أذنيه، وأعرف طبيعة شعر إبطه، وأتحسس النقرة في شفته العليا، كنت أصب النبيذ الأحمر في سرته وأشرب المسفوح منها. ليس هناك موضع في جسدي لم تحوله شفتاه إلى صاعقة، أوه يا إلهي. علي أن أتوقف عن استعادة ممارستنا الحب. علي أن أنسى كم يبدو ذلك جديدًا في كل مرة، طازجًا وخالدًا نوعًا ما. كنت أعجز عن تمييز النغمات لكن مضاجعته كانت تجعلني أغني وعندها، وعندها من حيث لا أعلم «لست المرأة..» قبل أن يختفي مثل شبح.

ابتعد.

انمحى.

حتى صوفيا هكسلي، من بين كل الناس، محتني. سجينة، سجينة! كان يمكنها أن تقول «لا شكرًا» أو حتى «اخرجي!» كلا، لقد جنت، ربما كان العراك بالأيدي هو لغة الحوار في السجن، وكسر العظام وإراقة الدماء هي لغة النزلاء بدلًا من الكلمات. لا أدري أيهما أسوأ،

أنني رميت مثل القمامة أو جُلدت مثل عبد.

تناولنا الغداء في مكتبي قبل أن يرحل، سلطة الكركند ومياه «سمارتووتر» المعدنية، وشرائح الخوخ في البراندي، أوه، توقفي. لا يمكنني مواصلة التفكير فيه، وأنا أتجول حبيسة هذه الغرف، الكثير من الضوء والكثير من الفراغ، وحيدة جدًا. علي أن أرتدي بعض الثياب واخرج من هنا، وأفعل ما ظلت بروكلين تلح علي أن أفعله: أنسى أمر النظارات الشمسية والقبعات الكبيرة وأظهر نفسي، وأعيش الحياة كما لو أنها الحياة حقًا، لا بد أن تعرف أنها تجعل من «سيلفيا المتحدة» شركتها الخاصة.

اخترت بعناية: سروالًا قصيرًا وصدرية أبيضين بلون العظام وصندل بكعب عالٍ سميك وأربطة وحقيبة من القماش باللون البيج وضعت فيها فرشاة الحلاقة إن احتجت إليها، ومجلة «إيل» ونظارات شمسية أيضًا. سيعجب هذا بروكلين حتى إن كنت سأسير على بعد مربعين سكنيين فقط إلى المتنزه الذي يرتاده غالبًا منزهو الكلاب وطلاب صفوف التخرج في هذا الوقت من النهار، وفي وقت لاحق سيأتي ممارسو الجري والمتزلجون، ولكن لن تجد أمهات وأطفال في أيام السبت، فإجازات نهاية الأسبوع مخصصة لأيام اللعب وغرف اللعب والملاعب ومطاعم الألعاب، تحرسهم في ذلك مربيات لطيفات بلكنات حلوة.

اخترت مقعدًا قرب البركة الصناعية التي يعوم فيها البط الحقيقي، ورغم أنني أوقف سريعًا ذكرى وصفه للفرق بين البط البري والطيور الداجنة، إلا أن عضلاتي تذكرت أصابعه المدلكة الباردة. حين كنت أقلب صفحات مجلة «إيل» وأتفرس في صور الشباب الشهي، سمعت

خطوات بطيئة على الحصى، رفعت رأسي، كانت تلك خطوات ثنائي بشعر رمادي يتمشيان صامتين ويمسكان بيدي بعضهما، كان لبطنيهما الحجم نفسه تمامًا رغم أن بطنه كانت أكثر انخفاضًا، كان كلاهما يرتدي سروالًا باهتًا وبلوزة واسعة بهتت العلامات المطبوعة على وجهيها عن السلام. كان منزهو الكلاب يضحكون ويشدون ألجمتها دون سبب، باستثناء شعورهم بالحسد على الحياة الطويلة من الصحبة ربما. كان الثنائي يمشي بحذر كما لو كانا في حلم، تتوافق خطواتهما، ينظران إلى الأمام مباشرة مثل أناس مدعوين إلى سفينة فضاء حيث ينزلق الباب ويفتح ويمتد لسان من السجاد الأحمر خارجًا، ويصعدان يدًا بيد إلى ذراعي الحاضر المحسن، ويسمعان موسيقى جميلة جدًا تجعل الدموع تنهمر من عينيك.

كان ذلك المشهد يفعلها، الثنائي المتماسك الأيدي وموسيقاهما الصامتة. لا يمكنني التوقف الآن، أعود إلى الملعب المزدحم، و الجمهور الصارخ الذي لا يرقى إلى مستوى الموسيقى المثيرة الصاخبة، و رقص الحشود في الممرات، ووقوف الناس على مقاعدهم وتصفيقهم بالتماشي مع الإيقاع. كان ذراعاي مرفوعتين في الهواء تلوحان مع الموسيقى، وأردافي ورأسي تتمايل وحدها، وقبل أن أرى وجهه طوّق خصري بذراعه، وظهري ملتصق بصدره وذقنه على شعري، ثم وضع يديه على بطني فأنزلت ذراعيّ لأضعهما على يديه ونحن نرقص ظهرًا لصدر، وحين توقفت الموسيقى استدرت لأنظر إليه، فابتسم، فأصبحت رطبة وأرتعش.

قبل أن أغادر المتنزه تلمست شعرات فرشاة الحلاقة، كانت ناعمة ودافئة.

سويتنس

أوه نعم، ينتابني شعور سيء أحيانًا حيال معاملتي للولا آن عندما كانت صغيرة، لكن عليك أن تفهم، كان علي حمايتها، لم تعرف العالم. ليس هنالك سبب يدعوك لتكون قاسيًا أو جسورًا حتى إن كنت على صواب، ليس في عالم يمكنهم فيه إرسالك إلى مركز للأحداث لأنك رددت بوقاحة أو تشاجرت في المدرسة، عالم تكون فيه آخر من يتم توظيفه وأول من يفصل. لم تكن تدرك أيًا من ذلك أو كيف أن بشرتها السوداء سترعب البيض أو تضحكهم أو انهم سيخدعونها. رأيت مرة فتاة لم تكن بسواد لولا آن ولم تكن إلا في العاشرة من عمرها وقد عثّرها واحد من مجموعة فتية بيض وعندما سقطت وحاولت النهوض وضع آخر قدمه على ظهرها وأوقعها ثانيةً. كان هؤلاء الفتية يمسكون بطونهم وينحنون من شدة الضحك، وبعد أن رحلت بوقت طويل كانوا ما يزالون يقهقهون فخورين بأنفسهم. كان يمكنني مساعدتها وسحبها بعيدًا عن تلك القمامة البيضاء. انظر لو أنني لم أدرب لولا آن جيدًا فلن تعرف أبدًا كيف تعبر الشارع وتتفادى الفتية البيض، لكن الدروس التي علمتها لها أفادتها لأنها في النهاية جعلتني مزهوة كطاووس. حدث ذلك في قضية عصابة المعلمين المنحرفين، كانوا ثلاثة؛ رجل وامرأتان،

فقد أبلت حسنًا. رغم أنها كانت صغيرة إلا أنها تصرفت مثل الراشدين على منصة الشهود، هادئة وواثقة بنفسها. كان ترتيب شعرها الجامح محنة دومًا، لكني ضفرته بإحكام للمثول أمام المحكمة واشتريت لها ثوبًا يشبه ثياب البحارة باللونين الأبيض والأزرق. كنت متوترة للتفكير أنها قد تتعثر عند الصعود إلى المنصة أو تتلعثم أو تنسى ما قالته الأخصائيات النفسيات وتعرضني للحرج، لكن لا، حمدًا لله، لقد لفت حبل المشنقة حول عنق أحد هؤلاء المعلمين الخاطئين على الأقل إن جاز القول. كانت التهم المنسوبة إليهم ستجعلك تتقيأ، كيف أمكنهم أن يستغلوا الصغار لارتكاب الفاحشة، لقد تحدثوا عن ذلك في الصحف والتلفاز. كانت حشود من الناس، سواء ممن لديهم أطفال في المدرسة أو لا، يتظاهرون خارج المحكمة لأسابيع، وكان بعضهم يحمل لافتات معدة منزليًا تقول: اقتلوا المعتوهين و لا رحمة للشياطين.

حضرت معظم أيام المحاكمة وليس كلها، فقط الأيام التي كان مقررًا للولا آن أن تمثل فيها لأن الكثير من الشهود أرجئوا أو لم يحضروا أبدًا، أصيبوا بوعكة صحية أو غيروا رأيهم. كانت تبدو فزعة لكنها ظلت هادئة، وليس كبقية الأطفال الشهود الذين يتململون أو يتذمرون، وبعضهم كان يبكي. بعد أداء لولا آن في المحكمة وعلى منصة الشهود كنت فخورة بها جدًا، فسرنا في الشوارع يدًا بيد. أنت لا ترى كثيرًا فتاة سوداء تهزم بعض البيض السيئين، كنت أريدها أن تعرف كم كنت مسرورة فأخذتها لثقب أذنيها واشتريت لها زوجًا من الأقراط، حلق صغير من الذهب. حتى مالك البيت ابتسم حين رآنا. لم يكن هناك صور في الصحف بسبب قوانين حماية الأطفال، لكن الخبر انتشر، فحتى صاحب الصيدلية الذي كان يمتعض حين يرانا معًا أعطى

لولا آن لوحًا من شوكولاتة كلارك بعد أن سمع عن شجاعتها.

لم أكن أمًا سيئة، عليك أن تعرف ذلك، لكن ربما فعلت أمورًا مسيئة لطفلتي الوحيدة لأنه تعين علي حمايتها، كنت مضطرة، وكل ذلك بسبب امتيازات لون البشرة. في البداية لم أستطع النظر إلى ما وراء كل ذلك السواد لأعرف من كانت وأحبها ببساطة، لكني أحبها، أنا أحبها حقًا، وأظنها تفهم الآن، أظن ذلك.

في المرتين الأخيرتين اللتين رأيتها فيهما كانت، حسن، مذهلة، جريئة وواثقة. في كل مرة تأتي أنسى كم كانت سوداء لأنها كانت تستغل ذلك لصالحها بثيابها البيضاء الجميلة.

لقد علمتني درسًا كان علي أن أعرفه منذ زمن، ما تفعله للأطفال يؤثر بهم، وقد لا ينسونه أبدًا. حصلت على عمل راقٍ في كاليفورنيا لكنها لم تعد تتصل بي ولا تزورني، ترسل إلي المال والحاجيات بين الحين والآخر لكني لم أرها منذ وقت طويل.

برايد

اختارت بروكلين المطعم، يدعى بايرت، نصف راقٍ كان مشهورًا في السابق، لكنه الآن مكان فقد بريقه ويرتاده السياح والمنبوذين قطعًا. كان المساء باردًا جدًا قياسًا للثوب الأبيض بلا أكمام الذي أرتديه لكني كنت أريد إثارة إعجاب بروكلين بتقدمي، وباختفاء ندباتي تقريبًا. كانت تحاول إخراجي مما أسمته الإحباط المعتاد لما بعد الاغتصاب، وكان علاجها هو هذه الحانة المعقدة التصميم حيث سيفي الندل الذين يرتدون حمالات حمراء للبنطلونات تضغط على صدورهم بالغرض. إنها صديقة طيبة، بلا ضغط كما تقول. مجرد عشاء هادئ في مطعم خالٍ تقريبًا يعرض فيه رجال لطيفون مسالمون. أعرف لم تحب هذا المكان، إنها تحب الاقتراب من الرجال. منذ زمن طويل، قبل أن ألتقيها، جدلت شعرها الأشقر في ضفائر صغيرة ولأنها جميلة فقد أضفت الضفائر عليها فتنة لم تكن لتنلها دونها، على الأقل هذا ما يراه الرجال السود الذين تواعدهم.

كنا نتحدث عن أخبار المكتب أثناء تناول المقبلات لكن الضحك توقف عندما وصل طبق سمك الماهي ماهي، لقد كانت الوصفة المعتادة المفضلة، سابحة في حليب جوز الهند ومغطاة بالزنجبيل

والسمسم والثوم ورقائق صغيرة جدًا من البصل الأخضر، ضايقتني محاولة الطاهي جعل السمكة اللطيفة تبدو جذابة فأزلت كل شيء من الفيليه وقلت دون تفكير «أريد إجازة، للذهاب إلى مكان ما، في رحلة بحرية؟»

ابتسمت بروكلين «أووه، أين؟ أخيرًا، بعض الأخبار الجيدة».

فقلت: «لكن دون أطفال».

«هذا سهل، فيجي، ربما؟»

«ولا حفلات، أريد أن أكون مع أناس أسوياء ذوي بطون كبيرة، وألعب الشفلبورد على سطح السفينة، والبينجو أيضًا».

«برايد، إنك تخيفيني». ربتت بالمنديل على زاوية فمها ووسعت عينيها.

أنزلت شوكتي «لا، حقًا، هدوء فقط، لا شيء أعلى من صوت الأمواج على الشاطئ أو ذوبان الثلج في كؤوس شفافة».

وضعت بروكلين مرفقها على الطاولة وغطت يدي بيدها «أوه يا فتاتي، ما زلت تحت تأثير الصدمة. لن أسمح لك بالتخطيط إلى أن يزول تأثير هذا الاغتصاب، لا يمكنك أن تعرفي ماذا تريدين إلى أن يحدث ذلك، صدقيني، هل تفعلين؟»

لقد سئمت من هذا كله، في المرة القادمة ستجعلني أرى معالجًا نفسيًا أو أحضر جلسات لضحايا الاغتصاب. لقد سئمت ذلك لأني بحاجة أن أتمكن من الحديث بصدق مع صديقتي المقربة. قضمت طرف ساق الهليون وقاطعت سكيني وشوكتي بهدوء.

«انظري، لقد كذبت عليك» دفعت طبقي بقوة فأوقع ما تبقى من كأس مارتيني التفاح خاصتي، فمسحته بمنديلي بحذر محاولة أن أثبت نفسي ليبدو ما سأقوله عاديًا. «لقد كذبت يا صديقتي، لقد كذبت عليك، لم يحاول أحد اغتصابي وتلك كانت امرأة ضربتني حتى الموت. امرأة ما كنت أحاول مساعدتها، لأجل المسيح، حاولت مساعدتها لكنها كانت ستقتلني لو أنها استطاعت».

كانت بروكلين تحدق بي فاغرة فاها ثم ضاقت عيناها «امرأة؟ أي امرأة؟ من تكون؟»

«لا تعرفينها».

«وأنت كذلك، كما يبدو».

«كنت أعرفها مرة».

«برايد، لا تلقي إليّ بالفتات، هات الطبق كاملًا لو سمحت» وضعت ضفائرها خلف أذنيها وحاصرتني بنظرة غاضبة.

استغرق الأمر ثلاث دقائق تقريبًا لأخبرها بالقصة، وكيف أنني حين كنت في الصف الثاني كانت معلمة الروضة التي يقع مبناها جانب مبنى مدرستي قد تحرشت بتلاميذها.

«لا يمكنني سماع ذلك» قالت بروكلين وهي تغلق عينيها كما لو كانت راهبة عرض أمامها فيلم إباحي.

فقلت: «أنت طلبت الطبق كاملًا».

«حسن، حسن».

«حسن، ألقي القبض عليها وحوكمت وأبعدت».

«فهمت ذلك، إذن ما هي المشكلة؟»

«لقد شهدت ضدها».

«هذا أفضل، ثم؟»

«أشرت إليها، جلست في مقعد الشهود وأشرت إليها وقلت إنني رأيتها تفعل ذلك».

«ثم؟»

«سجنوها، حكموا عليها بخمسة وعشرين عامًا».

«جيد، ليست نهاية القصة، أليس كذلك؟»

«حسن، لا ليس فعلًا». تململت وعدلت تقويرة ثوبي ووجهي «كنت أفكر فيها بين الحين والآخر، هل تعرفين؟»

«أوه، أوه، أخبريني».

«حسن، قضت منها عشرين عامًا فقط».

«وكذلك فعلت نساء مانسون(*)».

«ستبلغ الأربعين من عمرها خلال سنوات قليلة وظننت أنها ليس لديها أصدقاء».

«يا للمسكينة، ليس هنالك أطفال لتغتصبهم. يا للقرف!»

«إنك لا تصغين إلي».

«إنني أصغي إليك» ضربت بروكلين الطاولة «هل أنت مجنونة؟ من

* نساء مانسون: تشارلز مانسون قاتل أمريكي قاد عصابة من النساء قتلن من أجله سبعة أشخاص.

هي أنثى القاطور هذه إلى جانب كونها حثالة، أعني هل هي قريبتك؟ أجيبي».

«لا».

«إذن؟»

«ظننت فقط أنها ستكون حزينة ووحيدة بعد كل هذه السنوات».

«إنها تتنفس، ألا يكفيها هذا؟»

لم نكن نحرز تقدمًا، كيف أتوقع منها أن تفهم؟ أشرت للنادل «مرة ثانية» قلت وأومأت نحو الكأس الفارغة.

رفع النادل حاجبيه ونظر باتجاه بروكلين.

«لا أريد يا عزيزي، أحتاج أن أكون واعية تمامًا».

ابتسم لها ابتسامة فاتنة كشفت عن أسنان متراصة ناصعة.

«اسمعي بروكلين، لا أعرف لم ذهبت، ما أعرفه أنني لم أنقطع عن التفكير بها. كل تلك السنوات في ديكاجون».

«هل راسلتها؟ أو زرتها؟»

«لا. رأيتها مرتين فقط، مرة في المحاكمة والأخرى عندما حدث هذا» وأشرت إلى وجهي.

«أيتها العاهرة الغبية» بدت تشعر باشمئزاز حقيقي تجاهي.

«لقد تسببت في حبسها! سترغب بتمزيقك بالتأكيد»

«لم تكن كذلك قبلًا، لقد كانت لطيفة ومرحة وعطوفة»

« قبلًا؟ قبل أي شيء؟ قلت إنك لم تريها إلا مرتين، مرة في المحاكمة

ومرة حين ضربتك. لكن ماذا عن رؤيتها وهي تتحرش بالأطفال؟ أنت قلت..»

انحنى النادل يسكب شرابي.

«حسن» كنت متوترة وكان ذلك واضحًا «ثلاث مرات»

لعقت بروكلين زاوية فمها وقالت: «أخبريني يا برايد، هل تحرشت بك أيضًا؟ يمكنك إخباري».

يا إلهي. ما الذي تظنه؟ أنني سحاقية في السر؟ في شركة يديرها فعليًا ثنائيو الجنس، والعاديون والمتخنثون ومثليو الجنس وكل من يأخذ آراءهم على محمل الجد، ما الغرض من إخفاء ميلك الجنسي هذه الأيام؟

«أوه يا فتاة، لا تكوني غبية» ومنحتها النظرة التي كانت ترمقني بها سويتنس حين أسكب مشروب كول إيد أو حين أتعثر بالسجادة.

«حسن حسن» قالت ملوحة بيدها. «أيها النادل، عزيزي غيرت رأيي، أريد كأسًا من كوكتيل بيلفدير روكس، مضاعفة».

غمز النادل قائلًا: «لك ذلك» مشددًا على «لك» بنبرة لا بد أنها منحته رقم هاتف واعد في شمال داكوتا.

«انظري إليّ يا صديقتي، فكري بالأمر، ما الذي يجعلك تشعرين بالأسى لحالها؟ أعني، حقًا»

«لا أعرف» هززت رأسي «ربما أردت أن أشعر بالرضا عن نفسي، ليس سهلًا. صوفيا هكسلي - هذا اسمها- كانت كل ما استطعت التفكير به، أحد ما قد يقدّر بعض... بعض المساعدة وديًا دون شروط».

«فهمت الآن» بدت مرتاحة وابتسمت لي.

«تفهمين؟ حقًا؟»

«بالتأكيد. انفصل عنك حبيبك فشعرت أنك مثل روث بقرة، وحاولت استعادة فتنتك، لكنك فشلت، أليس كذلك؟

«صحيح، إلى حد ما، أظن»

«سنصلح الأمر إذن»

«كيف؟» إن كان أحد يعرف ما الذي يتوجب فعله فهو بروكلين. كانت تقول دومًا الرقص يقتضي خيارًا إما الاستلقاء هناك أو القفز. «كيف نصلحه؟»

«حسن، دون بينجو» تحمست

«ماذا إذن؟»

فصرخت:«بلينجو!»(*)

فسأل النادل: هل طلبتني؟

***

بعد أسبوعين، كما وعدت تمامًا، نظمت بروكلين احتفالًا، حفلة تحضيرية كنت فيها محط الانتباه، أنا التي ابتكرت يو جيرل وساعدت في خلق كل تلك الإثارة حول العلامة. أقيم الاحتفال في فندق راقٍ كما أظن، لا بل في متحف للأذكياء، كان هناك حشد ينتظر وكذلك سيارة الليموزين. كان شعري وثوبي رائعين، كانت أحجار تشبه الماس

---

* تقصد إقامة حفلة.

تزين الدانتيلا البيضاء لثوبي الذي كان ضيقًا من الأعلى ثم يتسع لينتهي بقصة حورية البحر عند كاحلي. كان شفافًا في مواضع مثيرة ومبطن في مواضع أخرى، عند الحلمات والمثلث العاري تحت السرة.

كل ما تبقى اختيار الأقراط، لقد أضعت قرطي اللؤلؤ فاخترت زوجًا ماسيًا بوزن قيراط. كان مظهري بسيطًا دون بهرجة أو أي شيء يفسد ما وصفه جيري المزيج بين القهوة السوداء والقشدة المخفوقة، النمر على الثلج.

يا إلهي، ماذا حدث الآن؟ لا يمكنني إدخال قرطيّ، و ظلت الساق البلاتينية تنزلق بعيدًا عن شحمة أذني. تفحصت الأقراط ولم أجد بها عيبًا، فأمعنت النظر في شحمتي أذني لأكتشف أن الثقبين الصغيرين اختفيا. هذا سخيف، لقد ثقبت أذني منذ أن كنت في الثامنة، فقد أعطتني سويتنس حلقتين صغيرتين من الذهب المزيف بعد أن شهدت ضد الوحش. من ذلك الحين لم أضع أقراطًا متدلية بدبابيس، كنت أختار حبات اللؤلؤ الصغيرة فقط متجاهلة نصائح مصمم «الكمال»، وأحيانًا، مثل الآن، أختار الماس. لحظة، هذا مستحيل، هل أصبحت شحمتا أذني عذراوين لم تمسها إبرة وناعمتين مثل إبهام طفل بعد كل هذه السنوات؟ ربما كان هذا بسبب الجراحة التجميلية أو تأثيرًا جانبيًا للمضادات الحيوية؟ لكن هذا كان منذ أسابيع. كنت أرتجف. كنت بحاجة إلى فرشاة الحلاقة. رن الهاتف. أخرجت الفرشاة وقربتها بخفة من نهديّ فأشعرتني بالدوار. الهاتف ما زال يرن. حسن، لا حليّ، ولا أقراط. التقطت سماعة الهاتف.

«آنسة برايد، وصلت سيارتك».

لو أنني تظاهرت بالنوم لربما كان سيغادر فقط، أيًا يكن هو لم

أستطع مواجهته للحديث أو لعناق مزيف بعد الجنس، خاصة أنني لا أذكر شيئًا عن الأمر. قبل كتفي بلطف وتحسس شعري بأصابعه، فهمهمت كما لو أنني أحلم. ابتسمت رغم أنني أبقيت عينيّ مغمضتين، فأبعد الشرشف وسار نحو الحمام. استرقت لمسة لأذنيّ، ناعمتين، ما تزالان كذلك. حظيت بإطراء في الحفلة: كم أنت جميلة، كم أنت فاتنة، مثيرة جدًا، بهية جدًا، كان الجميع يردد ذلك غير أن أحدًا لم يتساءل عن غياب الأقراط، ووجدت ذلك غريبًا، لأنه خلال إلقاء الخطابات وتقديم الجائزة والعشاء والرقص كانت شحمتا أذنيّ اللتان تشبهان إبهام طفل تشغلان بالي ولم أتمكن من التركيز، فألقيت خطاب شكر مفككًا، وضحكت طويلًا على النكات البذيئة، وتلعثمت في حديثي مع زملائي، وشربت ثلاث أو أربع مرات أكثر مما يمكنني احتماله ببساطة، رقصت مرة واحدة وبعدها كنت أتودد مثل فتى في الثانوية يروج لاختيار ملكة حفلة نهاية العام، وهكذا كنت قد دعوت أيًا يكن اسمه إلى فراشي. استطعمت لساني آملة أن يكون الغشاء هو غشاء لساني وحده، حمدًا لله أنه ليس هنالك أصفاد تتدلى من أعمدة السرير.

كان قد أنهى استحمامه وكان يردد اسمي وهو يرتدي بزته التوكسيدو، فلم أجب ولم أنظر، وكل ما فعلته أنني جذبت الوسادة فوق رأسي، وقد أعجبه ذلك فسمعته يضحك، كنت أسمع الضجيج في المطبخ وهو يعد القهوة، لا لم تكن القهوة وإلا لكنت شممت رائحتها. كان يصب شيئًا ما، عصير برتقال، عصير خضراوات، شامبانيا بلا فقاعات؟ هذا كل ما في الثلاجة. صمت ثم وقع خطوات، أرجوك أرجوك غادر فقط. سمعت صوت نقر على الطاولة الجانبية ثم صوت الباب الأمامي يفتح ثم يغلق ثانية، وحين استرقت النظر من

تحت الوسادة وجدت مربعًا ورقيًا مطويًا قرب الساعة. رقم هاتف، فابيلوس (رائع) هذا اسمه، واستلقيت براحة، لم يكن موظفًا.

اندفعت إلى الحمام ونظرت إلى سلة المهملات، أشكرك يا إلهي، واقٍ ذكري مستعمل. كانت آثار البخار على زجاج الحمام قرب خزانة الأدوية التي كانت مرآتها صافية لامعة مظهرة لي ما رأيته بالأمس، شحمتي أذنيّ عذراوين كما كانتا يوم ولادتي. إذن هذا هو الجنون، ليست التصرفات البلهاء بل مشاهدة التغيير المفاجئ في العالم الذي اعتدت معرفته. أنا بحاجة لفرشاة الحلاقة والصابون . لم تكن هنالك أي شعرة تحت إبطي لكنني رغوته، ثم الآخر. كان بسط الرغوة والحلاقة يهدئاني وكنت أشعر بالامتنان لأني بدأت التفكير بمواضع أخرى تحتاج هذه المسرة الصغيرة، عانتي ربما. إنها بلا شعر أساسًا، هل سيكون من المراوغة تمرير الموسى هناك؟ نعم، المراوغة.

عدت إلى الفراش هادئة وانزلقت تحت الغطاء، وبعد دقائق انفجر في رأسي ألم نابض فنهضت وعثرت على قرصي فيكودين لأبتلعهما، وبينما كنت أنتظر مفعول القرصين لم يكن لدي ما أفعله سوى السماح لأفكاري بمطاردة وتعقب وقضم بعضها بعضًا.

ما الذي يحدث لي؟

إن حياتي تنهار، كنت أنام مع رجال لا أعرف أسماءهم ولا أذكر أيًا منهم. ما الذي يحدث؟ أنا شابة، أنا ناجحة وجميلة، جميلة جدًا، رغمًا عنك يا سويتنس. إذن لم أشعر بالبؤس؟ لأنه تركني؟ لدي ما عملت من أجله وأنا جيدة في ذلك، فخورة بنفسي، أنا كذلك حقًا لكن تأثير الصداع والفيكودين جعلني أظل أتذكر بعض الأمور التي لا أفخر بها من الماضي، لقد تخطيتها كلها ومضيت، وهذا ما ظنه بوكر، أليس

كذلك؟ لقد أفشيت له أسراري، وأخبرته بكل شيء، كل مخاوفي وكل آلامي وكل إنجازاتي مهما كانت صغيرة، وحين كنت أحدثه عن أمور معينة دفنتها كانت تبدو جديدة كما لو أنني أراها للمرة الأولى؛ كيف كانت غرفة نوم سويتنس دومًا غير مضاءة، فأفتح النافذة قرب خزانتها، كل أشياء النساء البالغات التي تزدحم بها طاولة زينتها: ملاقط، كرات قطن، علبة مدورة من بودرة الوجه لاكي ليدي، القنينة الزرقاء لكولونيا ميدنايت إن باريس، دبابيس الشعر في صحن صغير، مناديل، أقلام رسم الحواجب، ماسكارا مايبيلين، أحمر شفاه تابو، كان أحمر فاقعًا وجربت قليلًا منه، فلا عجب أنني أعمل في عالم مستحضرات التجميل الآن. ربما كان وصف كل هذه الأشياء على طاولة زينة سويتنس هو ما دعاني لإخباره بالأمر الآخر، كله. حين سمعت مواء قطة من النافذة المفتوحة، كم بدت متألمة ومذعورة، فنظرت، في الأسفل في الساحة المسورة التي تؤدي إلى قبو البناية لم أر قطة بل رجلًا، كان منحنيًا على الساقين القصيرتين البدينتين لطفل بين فخذيه المشعرين الأبيضين. كانت يدا الطفل الصغيرتان مضمومتين يفتحهما ويغلقهما، وكان بكاؤه خافتًا وحادًا ومثقلًا بالألم، كان سروال الرجل عند كاحليه. ملت على حافة النافذة وحدقت. كان للرجل شعر أحمر مثل شعر السيد لي مالك البناية، لكني كنت أعلم أنه لم يكن هو لأنه كان متجهمًا لا قذرًا. كان يطلب دفع الإيجار نقدًا قبل ظهيرة اليوم الأول من الشهر ويقبض غرامة تأخير إن قرعت بابه بعد ذلك الوقت بدقائق قليلة. كانت سويتنس تخافه جدًا وتحرص على أن أسلمه المال قبل أي شيء في الصباح. صرت أعلم الآن ما لم أعرفه حينها، كانت مواجهة السيد لي تعني البحث عن شقة أخرى، وكان يصعب العثور على واحدة في منطقة آمنة، أعني مختلطة. لذا حين أخبرت سويتنس بما رأيت استشاطت غيظًا، ليس

من أجل الولد الصغير الباكي بل حول نشر الخبر، لم تكترث بالكفين الصغيرتين أو بالفخذين المشعرين الكبيرين، كان ما يعنيها الاحتفاظ بشقتنا، فقالت: «لا تنطقي بكلمة حول هذا، لأي أحد، هل سمعتني يا لولا؟ انسي الأمر، لا تنطقي بكلمة». لذا خفت من إخبارها البقية، بأن شيئًا ما، رغم أنني لم أحدث صوتًا وملت على حافة النافذة وحدقت فحسب، جعل الرجل ينظر للأعلى، وقد كان السيد لي، كان يغلق سحاب سرواله عندما استلقى الولد ينشج بين حذائيه. أرعبتني النظرة التي علت وجهه لكنني لم أستطع الحركة، وعندها سمعته يصرخ: «هي أنت، أيتها العاهرة الزنجية الصغيرة! أغلقي تلك النافذة وابتعدي من هنا!»

حين أخبرت بوكر عن ذلك ضحكت أولًا متظاهرة أن الأمر برمته كان سخيفًا، ثم شعرت بحرقة في عينيّ. وقبل أن تنفجر دموعي أمال رأسي على ذراعه وضغط بذقنه على شعري.

« ألم تخبري أحدًا أبدًا؟» سألني

فقلت: «أبدًا، أنت فقط».

«الآن هناك خمسة أشخاص يعرفون بالأمر؛ الولد والمعتوه وأمك وأنت وأنا، خمسة أفضل من اثنين لكن يجب أن يعرف خمسة آلاف».

رفع وجهي إلى وجهه وقبلني: «هل رأيت ذاك الصبي ثانية؟»

قلت إنني لا أظن ذلك، وإن وجهه كان نحو الأرض ولم أره. «كل ما أعرفه أنه كان ولدًا أبيض بشعر بني». وحين تذكرت كفه الصغيرة وهي تنبسط ثم تنقبض، تنبسط واسعة ثم تنقبض بقوة لم أستطع منع نفسي من النشيج.

«هيا يا حبيبتي، لست مسؤولة عن أخطاء الآخرين»

«أعرف، لكن...»

«لا تقولي لكن، صححي ما يمكن وتعلمي مما لا يمكنك تصحيحه»

«لا أعرف دائمًا ما الذي يتعين إصلاحه»

«بلى تعرفين. فكري بالأمر، مهما حاولنا جاهدين تجاهله، يطلب العقل الحقيقة دائمًا ويحتاج الوضوح».

كان ذلك واحدًا من أفضل حواراتنا على الإطلاق، وشعرت براحة كبرى، لا، بل أكثر من ذلك، شعرت أني محبوبة محتضنة وآمنة.

ليس كما يحدث الآن، أتلوى وأنثني بين الأغطية القطنية الأكثر غلاء في العالم، موجوعة، أنتظر مفعول قرص الفيكودين الآخر وأنا أتآكل في غرفة نومي الجميلة عاجزة عن إيقاف الأفكار المخيفة. الحقيقة. الوضوح. ماذا لو كانت سبابتي تشير إلى مالك البناية في قاعة المحكمة؟ ما اتهمت به تلك المعلمة هو ما فعله السيد لي، فهل كنت أشير إلى تصوره؟ بذاءته أو الشتائم التي نعتني بها؟ كنت في السادسة من عمري ولم أسمع أبدًا بكلمتي «العاهرة» و»الزنجية» من قبل لكن الكراهية والاشمئزاز فيهما ليسا بحاجة إلى شرح. كما حدث لاحقًا في المدرسة عندما نعتت بشتائم بهمس أو بصوت عالٍ تفسيرها غامض ومعناها واضح- مثل زنجية، عبدة، فحمة، غبية، متوحشة. أصوات وحركات في تقليد قردة حديقة الحيوانات. مرة وضعت فتاة وثلاثة أولاد كومة من الموز على طاولتي وأخذوا يقلدون القردة، كانوا يعاملونني على أنني معتوهة أو غريبة الأطوار مدنسة مثل بقعة حبر على صفحة بيضاء. لم أشكهم للمعلمة للسبب ذاته الذي نبهتني إليه

سويتنس مع السيد لي، فقد أفصل أو أطرد. فتركت الشتائم والتنمر تتنقل مثل السم، مثل فيروسات قاتلة في عروقي دون أن يتاح لي مضاد حيوي، الأمر الذي كان جيدًا كما أراه الآن لأنني بنيت مناعة قوية فكان كل ما أحتاجه للفوز هو ألا أكون «فتاة زنجية». أصبحت سوداء جميلة لا تحتاج للبوتوكس لتحصل على شفاه مغرية أو نوادي للتسمير لإخفاء شحوب الموتى، لا أحتاج للسيليكون في مؤخرتي. بعت سوادي الجميل لكل أشباح الطفولة أولئك وكانوا يدفعون لي مقابله. علي أن أقول إن جعل أولئك الوحوش – الحقيقيين منهم وآخرين مثلهم- يسيل لعابهم من الحسد عندما يرونني هو أكثر من استرداد دين، إنه مجد.

هل اليوم هو الاثنين أم الثلاثاء؟ على أية حال، قضيت اليومين الماضيين في الدخول إلى الفراش والنهوض منه، وكففت عن القلق حيال شحمتي أذني، يمكنني أن أثقبهما ثانية. كانت بروكلين تهاتفني وتطلعني على المستجدات في العمل، طلبت تمديدًا لإجازتي وحصلت عليه، وهي «تمثل» دور المدير الإقليمي الآن، سعيدة من أجلها. إنها تستحقه لأنها أنقذتني من كارثة ديكاجون واعتنت بي لأيام واهتمت بعودة سيارتي الجاغوار وعينت طاقمًا للتنظيف واختارت جراح التجميل. لقد طردت روز، خادمتي، فقط لأنني لم أعد أحتمل رؤيتها البدينة ذات الأثداء التي لها حجم الشمام والمؤخرة التي لها حجم بطيخة حمراء. لم أكن لأتعافى دون بروكلين، ومع ذلك أخذت مكالماتها تقل وتقل.

بروكلين

كنت أظنه لصًا. لا يهمني مدى صخب الحشد الراقص، لكنك لا تمسك بأحدهم من الخلف هكذا إلا إن كنت تعرفه، لكنها لم تبال على الإطلاق. سمحت له أن يضغط جسدها ويمرر يده عليها وهي لا تعرف عنه شيئًا وما زالت، لكني أعرف. رأيته مرة مع مجموعة من الفاشلين القذرين عند مدخل المترو يتسول، لأجل المسيح. وأنا متأكدة أني رأيته مرة ممددًا على عتبات المكتبة متظاهرًا أنه يقرأ كتابًا فلا يطلب منه رجال الشرطة أن يغادر. ورأيته مرة أخرى يجلس في مقهى يكتب في دفتر محاولًا أن يبدو جادًا، كما لو أن لديه أمرًا هامًا للقيام به، وقد كان هو بالتأكيد من رأيته يتسكع في منطقة تبعد عن شقة برايد، فماذا كان يفعل هناك؟ يقابل امرأة أخرى؟ لم تذكر برايد مرة ماذا يفعل وما هو عمله إن كان يعمل. قالت إنها تحب الغموض، كاذبة، إنها تحب الجنس، تدمنه وصدقني لأنني أعرف. حين كنا نحن الثلاثة معًا كانت تبدو مختلفة نوعًا ما، واثقة، وليست متطلبة أو تتوسل المديح باستمرار وبوضوح. كانت تشرق في صحبته، لكن بهدوء نوعًا ما، لا أدري. نعم، لقد كان رجلًا وسيمًا، وماذا يعني؟ ما الذي يقدمه عدا اللهو بين الشراشف؟ إنه مفلس.

كان بإمكاني تنبيهها، ولم أستغرب أبدًا أنه تركها كما يخلّف الظربان رائحته، لو كانت تعلم ما أعلم لألقت به خارجًا. حاولت مغازلته مرة فقط بداعي المرح وحاولت إغواءه في غرفة نومها، انتبه لذلك. كنت أحضر شيئًا لبرايد؛ نماذج مصغرة للتغليف، وكان لدي مفتاحها، ففتحت الباب. حين ناديتها أجابني: «إنها ليست هنا»، فسرت إلى غرفة نومها، كان مستلقيًا هناك يقرأ، عاريًا أيضًا تحت الشرشف الذي كان يصل إلى خصره، دون تفكير، وقد كانت تلك نزوة فعلًا، رميت العلب وركلت حذائي ثم بقية ثيابي ببطء كما في الأفلام الإباحية. كان يتابع المشهد بعناية وأنا أتعرى لكنه لم يقل كلمة فعرفت أنه يريدني أن أبقى. لم أكن أرتدي ثيابًا داخلية، لذا حين فتحت سحاب سروالي الجينز ودفعته بعيدًا وقفت هناك عارية كمولود. كان يحدق، لكن بوجهي فقط، فتجاهلت ذلك وتلمست شعري ثم انضممت إليه؛ انزلقت تحت الغطاء ووضعت ذراعي حول صدره وطبعت قبلة ناعمة عليه، فوضع كتابه جانبًا.

همست له بين القبل: «ألا ترغب بزهرة أخرى في حديقتك؟»

قال: «هل أنت واثقة أنك تعرفين ما الذي يجعل الحدائق تزهر؟»

قلت: «طبعًا، الحنان»

فأجاب: «والسماد»

استندت على مرفقي وحدقت به، الوغِد، لم يكن يبتسم لكنه لم يكن يبعدني أيضًا. قفزت من السرير والتقطت ثيابي بأسرعِ ما يمكنني، لم ينظر إليّ وأنا أرتدي ثيابي؛ الأحمق، بل عاد لقراءة كتابه. لو كنت أريد لكنت جعلته يمارس الحب معي، كنت أستطيع ذلك فعلًا، ربما لم يكن

علي أن أقدم على الأمر فجأة، ربما لو تراخيت قليلًا وأبطأت، على مهل.

حسن، على أية حال برايد لا تعرف شيئًا عمن كان حبيبها، لكنني أعرف.

برايد

أنا لا أفهم. من هو بحق الجحيم؟ كانت حقيبته الرياضية، التي أنوي التخلص منها كالأخريات، محشوة بمزيد من الكتب، واحد بالألمانية وكتابا شعر أحدهما لشخص يدعى هاس وبعض الكتب ذات الأغلفة الورقية لكتّاب لم أسمع بهم أبدًا.

يا إلهي، كنت أظنني أعرفه، أعرف أنه متخرج من إحدى الجامعات، وأنه يملك قمصانًا قصيرة الأكمام أيضًا، لكني لم أفكر أبدًا بهذا الجانب من حياته لأن ما يهمني في علاقتنا، إلى جانب ممارسة الحب وتفهمه الكامل لي، كان الوقت الممتع الذي نقضيه معًا. الرقص في النوادي، نظر الآخرين إلينا بحسد، جولات بالقارب مع الأصدقاء، السير على الشاطئ. عثوري على هذه الكتب يثبت أنني لم أعرف عنه إلا القليل، وأنه كان شخصًا آخر، شخصًا يفكر بأمور لم يتحدث عنها أبدًا، حقًا. كانت حواراتنا في معظمها تدور حولي لكنها لم تكن من نمط الحوارات الساخرة المفعمة بالدعابات التي أتحدث بها عادة مع الرجال الآخرين. بالنسبة لهم، كان أي شيء عدا مغازلتي أو آراءهم قد يؤول إلى خلاف وجدال وانفصال. لم أتحدث عن طفولتي لأي منهم كما فعلت مع بوكر. حسن، كان هنالك أوقات تحدث إليّ فيها مطولًا، لكنها لم تكن حميمية

بل كانت أشبه بمحاضرة. كنا مرة ممددين على مقاعد الشاطئ، فبدأ يحدثني عن تاريخ الماء في كاليفورنيا، كان الأمر مملًا قليلًا نعم، لكني كنت مهتمة نوعًا ما، ومع ذلك غططت في النوم.

لم أكن أعرف ما الذي يشغله حين أكون في العمل ولم أسأله أبدًا. كنت أظن أنه يحبني تحديدًا لأنني لم أستجوبه أو أزعجه أو أسأله عن ماضيه، وتركت له حياته الخاصة، ظننت أن ذلك يبين له كم أثق به، وأنني منجذبة إليه هو لا إلى ما يعمل. كل فتاة أعرفها تعرّف بحبيبها على أنه محامٍ أو فنان أو صاحب حانة أو وسيط مالي أو أيًا يكن، كان العمل، وليس الرجل، هو ما تعجب به الفتيات. «برايد، أقدم لك ستيف، إنه محامٍ في..» «إنني أواعد منتج الأفلام الرائع هذا..» «جوي هو مدير الحسابات في...» «حصل حبيبي على دور في برنامج تلفزيوني..»

لم يكن علي الوثوق به، أعني أنني أفشيت له كل شيء عني، ولم يخبرني بشيء عنه، كنت أتحدث وهو يستمع. ثم تركني، رحل دون أن يقول كلمة، ساخرًا مني، ملقيًا بي تمامًا كما فعلت صوفيا هكسلي. لم يتحدث أي منا عن الزواج لكني كنت أظنني وجدت رجل حياتي. «أنت لست المرأة التي أريد» كان آخر ما توقعت سماعه.

ملأ البريد المكدس لأيام، لأسابيع السلة على الطاولة قرب بابي. بعد البحث في الثلاجة عن شيء لتناوله، قررت أن أطلع على الكومة، ملقية بكل طلبات المال من كل الجمعيات الخيرية في العالم، والوعود بالهدايا من المصارف والمتاجر والشركات الفاشلة. كانت هناك رسالتان فقط مهمتين الأولى من سويتنس «مرحبًا يا حلوتي» ثم أخبار عن نصائح أطبائها قبل التلميح المعتاد لطلب المال. كانت الأخرى باسم بوكر ستاربيرن من سالفاتور بونتي في الشارع السابع عشر.

فتحتها وعثرت على فاتورة تذكيرية، ثمانية وستون دولارًا فات موعد استحقاقها. لم أعرف إن كان علي رميها في سلة المهملات أو الذهاب لرؤية ما فعله السيد بونتي مقابل ثمانية وستين دولارًا، ورن الهاتف قبل أن أتخذ قراري.

«هي، كيف كانت ليلة البارحة، رائعة أليس كذلك؟ كنت مذهلة كالعادة» كانت بروكلين تلمح إلى شيء بين الكلمات، شيء عديم السعرات الحرارية، يمنح الطاقة، داعم للحمية، ذي نكهة مزيفة، دسم، مصبوغ بالألوان «ألم يكن ذلك قنبلة ما بعد الحفلة؟»

أجبت: «نعم»

«لا تبدين واثقة، هل تحول الرجل الذي غادرت بصحبته إلى السيد روجرز أو سوبرمان؟ من يكون على أية حال؟»

سرت باتجاه الطاولة الجانبية ونظرت ثانية إلى ملاحظته «فيل ..».

«كيف كان؟ ذهبت إلى مطعم روكو مع بيلي و...»

«بروكلين، علي أن أخرج من هنا، إلى أي مكان بعيد».

«ماذا؟ هل تعنين الآن؟»

«ألم نتحدث عن رحلة بحرية إلى مكان ما؟» كان صوتي متذمرًا، أعرف.

«نعم فعلنا، وطبعًا سنذهب، لكن بعد أن يبدأ إرسال شحنات يو جيرل، لقد وصلت العينات المجانية ولدى الشباب أفكار رائعة حقًا لـ..»

كانت تثرثر إلى أن أوقفتها» اسمعي، سأتحدث إليك لاحقًا، أنا

منشغلة بعض الشيء»

«لا تمزحي» قالت وهي تقهقه

عندما أغلقت السماعة كنت قد قررت أن أذهب لرؤية السيد بونتي.

صوفيا

لا يسمح لي بالاقتراب من الأطفال. كانت الرعاية المنزلية أول عمل لي بعد إطلاق سراحي شرطيًا، وقد ناسبني ذلك لأن السيدة التي كنت أرعاها كانت لطيفة معي، بل ممتنة لمساعدتي، وأحببت البقاء بعيدًا عن الضجيج والازدحام. كان ديكاجون صاخبًا مزدحمًا بنساء أسيئت معاملتهن وحراس صارمين. في أسبوعي الأول الذي قضيته في بروكهافين قبل نقلي إلى ديكاجون، رأيت سجينة ضربت على مؤخرة رأسها بحزام فقط لأنها ألقت طبق طعامها على الأرض، وجعلتها الحارسة تركع على قوائمها الأربع وتأكله، حاولت ذلك لكنها أخذت تتقيأ فأخذوها إلى المستوصف. لم يكن الطعام سيئًا إلى هذا الحد، كان الطعام بودينج الذرة واللحم المعلب، أظنها كانت مصابة بالزكام أو ما شابه. كان ديكاجون أفضل من بروكهافين، الذين كانوا يجبون تعريتنا للتفتيش عند كل مدخل ومخرج. ومع ذلك، كان هناك دومًا في المكان الثاني بعض المناوشات بين الحراس والنزلاء، وفي الوقت الذي لا يحدث فيه ذلك، حين نؤدي أعمالنا، كان الضجيج والشجار والقتال والضحك والصراخ يتواصل ويتواصل، وكان إطفاء الأنوار يخفضه من الزئير إلى النباح، أو هذا ما ظننته على الأقل. كان الهدوء غالبًا هو ما أعجبني

في الرعاية المنزلية، ورغم ذلك كان علي الاستقالة بعد شهر واحد لأن أحفاد المريضة كانوا يأتون لزيارتها في إجازات نهاية الأسبوع. عثر الضابط المراقب على عمل مشابه بلا أطفال في دار رعاية لا يطلق عليه اسم مأوى لكنه كان كذلك تقريبًا. في البداية لم يعجبني أن أكون محاطة بأناس كثيرين في مؤسسة أخرى، وبخاصة أن علي الرد عليهم، لكني اعتدته لأن مديريّ لم يكونوا يهددوني برغم ارتدائهم الزي الموحد. كان أي شيء يبدو كالسجن أو يشعرني أنه كذلك يمنحني إحساسًا سيئًا.

لقد نجوت خلال هذه السنوات الخمس عشرة بطريقة ما، وأتساءل إن كنت سأنجو لولا مباريات كرة السلة في إجازات نهاية الأسبوع وجولي رفيقتي في الزنزانة وصديقتي الوحيدة. في السنتين الأوليين كانوا يتجنبون كلتينا في قاعة الطعام، كلتانا سجنت بسبب التحرش بالأطفال، كنا نتعرض للشتم والبصاق وكان الحراس يضربون باب الزنزانة بين الحين والآخر، ثم نسي الجميع أمرنا تقريبًا بعد فترة. كنا في أسفل كومة القتلة ومفتعلي الحرائق وتجار المخدرات والثوريين الذين يلقون القنابل والمختلين عقليًا. كان إيذاء الأطفال الصغار هو فكرتهم عن أعلى درجات الانحطاط، وهذا هراء لأن تجار المخدرات لا يأبهون بمن يسممون أو بأعمارهم، ومفتعلو الحرائق لا يفصلون الأطفال عن الأسر التي حرقوها، والذين يلقون بالقنابل ليسوا انتقائيين أو يعرف عنهم الدقة. إن كان أحد يشك بكراهيتهم لي ولجولي فكل ما عليه فعله أن يلاحظ كيف كان حب الأطفال معلنًا في كل مكان، فقد كانت صور الرضع والأطفال تغطي جدران الزنزانة، طفل أي أحد.

كانت جولي تقضي حكمًا لخنق ابنتها المقعدة، كانت صورة الفتاة الصغيرة ملصقة على الحائط فوق سريرها، مولي ذات رأس كبير وفم

مرتخٍ وعينين زرقاوين هما الأجمل في العالم. كانت جولي تهمس لصورة مولي كل ليلة أو كلما استطاعت، لم تكن تطلب الغفران بل كانت تحكي القصص لابنتها الميتة، حكايات خرافية معظمها عن الأميرات. لم أخبرها يومًا، لكني كنت أحب تلك القصص أيضًا، كانت تساعدني على النوم. كنا نعمل في ورشة الخياطة، نخيط زيًا موحدًا لشركة طبية تدفع لنا اثني عشر سنتًا في الساعة، وحين تصلبت أصابعي ولم أعد قادرة على العمل على آلة الخياطة جيدًا نقلت إلى المطبخ حيث كنت أوقع أرضًا كل الطعام الذي لم أحرقه فأعدت ثانية إلى ورشة الخياطة، لكن جولي لم تكن هناك، كانت في المستوصف بعد محاولتها لشنق نفسها لكنها لم تعرف كيف، وعرضت عليها عدد من النزيلات الأكثر قسوة شرح ذلك لها. حين عادت إلى السجن كانت مختلفة هادئة حزينة ولم تعد محبة للرفقة كثيرًا. أظنها كانت عصابة الاغتصاب المؤلفة من أربع نساء وحب الاستعباد الذي كانت شريكتها فيه واحدة من النساء الكبيرات، زوج تدعى لوفر ولم يكن أحد يعبث معها. لم يكن هناك أحد، لا من الحراس ولا من النزيلات، يحبني بما يكفي ليرغب بأكثر من الأمور المعتادة. لقد كنت ملاكمة وطويلة جدًا كما أظن مثل عملاق في المكان، وهذا جيد، لأنني أرى أنه كلما كان التملق أقل كان ذلك أفضل.

تلقيت رسالتين فقط من زوجي جاك طوال هذه السنوات. كانت الأولى رسالة حب تحولت إلى شكاوى مثل «لقد أصبحت [كلمة مظللة] هنا» أضرب؟ أغتصب؟ أعذب؟ ما هي الكلمة التي قد يظللها مراقب البريد في السجن عدا هذه؟ وبدأت الرسالة الثانية بـ»ما الذي كنت تفكرين به أيتها العاهرة بخق الجحيم؟» لم تظلل الكلمات هنا. لم أجبه. أرسل إلي والداي طردًا في عيد الميلاد وفي يوم ميلادي: ألواح حلوى

مغذية وسدادات قطنية نسائية وكتيبات دينية وجوارب، لكنهما لم يكتبا لي أو يتصلا بي أو يزوراني أبدًا. لم يفاجئني ذلك، لقد كان إرضاؤهما صعبًا دومًا. كان إنجيل العائلة موضوعًا على حامل قرب البيانو الذي تعزف أمي الترانيم عليه بعد العشاء. لم يقولا ذلك لكني أظنهما كان سعيدين بالتخلص مني، ففي عالمهما عالم الرب والشيطان ليس هنالك بريء يدخل السجن.

كنت غالبًا أفعل ما يطلب مني، وكنت أقرأ كثيرًا. كان أحد الأمور الجيدة في ديكاجون مكتبته، حين كانت المكتبات العامة لا تحتاج أو لا ترغب بتلقي المزيد من الكتب كانت ترسل إلى السجون أو دور المسنين. كان أي كتاب عدا الإنجيل والكتيبات الدينية محظور في بيت عائلتي. كنت أظنني كمعلمة قارئة جيدة رغم أنه في الكلية، في تخصص التربية، لم يكن مطلوبًا منا أن نقرأ الأدب. لم أكن قد قرأت الأوديسا أو جين أوستن حتى سجنت، لم تعلمني أي منهما الكثير لكن التركيز على محاولات الهروب والمكائد ومن سيتزوج بمن كان إلهاء أرحب به.

في يومي الأول من إطلاق السراح المشروط وفي سيارة الأجرة شعرت أنني طفلة ترى العالم للمرة الأولى، المنازل المحاطة بالعشب الأخضر جدًا آذى عينيّ، والزهور التي بدت مطلية لأنني لا أذكر ورودًا بلون اللافندر أو دوار الشمس المشرق جدًا. بدا كل شيء ليس معادًا تشكيله فحسب بل جديد، وحين فتحت النافذة لأتنشق بعض الهواء النقي أخذت الريح تعبث بشعري وتطيره للخلف وعلى الجانبين. حينها عرفت أنني حرة، الريح، الريح التي تتلمس شعري وتمسده وتقبله.

في ذلك اليوم نفسه قرعت الباب واحدة من التلاميذ الذين شهدوا

ضدي، وكلهم بالغون الآن، كنت في غرفة في نزل وضيع أتوق لتناول الطعام والنوم في عزلة لمرة، دون شجارات أو أصوات ممارسة الجنس، أو نشيج عالٍ أو شخير من الزنزانات المجاورة. لا أظن أن كثيرًا من الناس يقدرون الصمت أو يدركون أنه قريب للموسيقى بقدر ما يمكنهم تخيله، يجعل الهدوء بعض الأشخاص يتململون أو يشعرون أنهم وحيدون جدًا. بعد خمس عشرة سنة من الضجيج كنت جائعة للصمت أكثر من جوعي للطعام، لذا التهمت كل شيء وتقيأته وكنت على وشك أن أحظى ببعض العزلة العميقة عندما سمعت قرعًا على الباب.

لم أكن أعرف من هي رغم أن شيئًا في عينيها بدا مألوفًا، وقد يكون لون بشرتها السوداء لافتًا في عالم آخر، لكن بعد قضاء تلك السنوات في ديكاجون لم يكن كذلك، بعد خمسة عشر عامًا من ارتداء الحذاء المسطح القبيح، كنت مهتمة أكثر بحذائها الأنيق، من جلد الأفعى أو القاطور، مدبب وبكعب عالٍ جدًا، كان مثل الرجلين الخشبيتين اللذين يضعهما مهرجو السيرك. كانت تتحدث كما لو كنا صديقتين لكنني لم أكن أعلم ما الذي كانت تتحدث عنه أو ماذا أرادت حتى رمت المال علي. كانت واحدة من التلاميذ الذين شهدوا ضدي، واحدة من الذي ساعدوا على قتلي، وسلبوني حياتي. كيف يمكنها أن تظن أن المال قد يمحو خمسة عشر عامًا من حياتي كالموت؟ صعقت. تولت قبضتاي الأمر كما لو أنني ظننت أني أحارب الشيطان نفسه الذي كانت أمي تتحدث عنه أمي دائمًا، مغوٍ لكنه شرير. حين ألقيت بها خارجًا وتخلصت من قناعها الشيطاني التففت مثل كرة على الفراش وانتظرت وصول الشرطة، انتظرت وانتظرت، ولم يأت أحد. لو أنهم دفعوا الباب لرأوا امرأة

انهارت أخيرًا بعد خمس عشرة سنة من البقاء قوية. للمرة الأولى بعد كل هذه السنوات، بكيت، وبكيت وبكيت وبكيت حتى غططت في النوم، وعندما استيقظت ذكّرت نفسي أن الحرية ليست مجانية أبدًا، عليك أن تقاتل من أجلها وتعمل من أجلها وتتأكد من قدرتك على التحكم بها.

حين أفكر بالأمر الآن أرى أن تلك الفتاة السوداء أسدت إلي معروفًا، ليس ذلك الغباء الذي كان في ذهنها، ليس المال الذي عرضته بل الهدية التي لم تخطط لها كلتانا، ذرف الدموع الحبيسة لخمسة عشر عامًا. لا مزيد من الكبت، لا مزيد من البذاءة، أنا نقية وقادرة الآن.

الجزء الثاني

كانت سيارة الأجرة أفضل لأن إيقاف الجاغوار في هذه المنطقة كان غباء وخطرًا. أدهش برايد أن بوكر كان يتردد على هذا الجزء من المدينة وتساءلت لمَ هنا؟ كانت هناك متاجر للموسيقى في مناطق غير خطرة، أماكن لا يتجمع فيها رجال ذوو وشوم وفتيات يرتدين ثيابًا كالغيلان في الزوايا أو يقرفصون على الأرصفة.

حين توقف السائق عند العنوان الذي أعطته له وبعد أن قال لها «آسف يا سيدتي لا يمكنني انتظارك هنا» خطت برايد بسرعة باتجاه باب قصر سالفاتور بونتي للرهن والتصليح، وداخله بدت كلمة قصر جنونًا أكثر من كونها خطأ. تحت الواجهات الزجاجية المغبرة كانت تجثم صفوف وصفوف من المجوهرات والساعات، فاقترب منها رجل حسن الهيئة كما يمكن لرجل مسن أن يبدو، وبعين بائع المجوهرات مسح كل يمكنه أن يدركه في زبونته.

«سيد بونتي؟»

«نادني سالي يا حلوتي، كيف أخدمك؟»

لوحت برايد بالفاتورة المتأخرة وشرحت أنها جاءت لتسديدها

وتستلم الغرض الذي أصلحه، نظر سالي إلى الفاتورة وقال «أوه، نعم. خاتم إبهام وبوق. إنهما في الخلف، تعالي».

ذهبا معًا إلى غرفة خلفية علقت فيها آلات الجيتار والأبواق على الجدران وغطت كل أنواع القطع المعدنية مفرش الطاولة. رفع الرجل الذي كان يعمل هناك نظره من عدسته المكبرة ليتفحص برايد ثم الفاتورة، وسار باتجاه خزانة وجلب آلة ترومبيت ملفوفة بقماش أرجواني.

قال العامل: «لم يذكر شيئًا عن خاتم الإصبع الصغير، لكني وضعت له واحدًا على أية حال. إنه رجل نيّق، نيق حقيقي».

أخذت برايد البوق وهي تفكر بأنها لم تكن تعرف أن بوكر يمتلك واحدًا أو أنه يعزف عليه. لو كانت مهتمة لعرفت أن ذلك هو سبب النقرة الداكنة على شفته العليا. سلمت سالي المبلغ الذي يدين به له.

«جميلة وذكية بالنسبة لفتى ريفي» قال عامل التصليح.

«فتى ريفي؟» عبست برايد «إنه ليس من الريف، إنه يعيش هنا».

«حقًا؟ أخبرني أنه من بلدة ريفية في الشمال» قال سالي.

«ويسكي» قال عامل التصليح

«عمَ تتحدثان؟» قالت برايد

«طريف، أليس كذلك؟ من يمكنه نسيان بلدة اسمها ويسكي؟ لا أحد يفعل»

انفجر الرجلان بضحك صاخب وأخذا يتذكران أسماء لا يمكن نسيانها لبلدات أخرى: إنتركورس في بنسلفانيا، نو نيم في كولورادو،

هيل في ميشيجان، إيليفانت بت في نيو مكسيكو، بيج في كينتكي، تايتواد في ميسوري. وبعد أن شعرا بالإنهاك أخيرًا من تسليتهما المشتركة التفتا ثانية إلى الزبونة.

«انظري هنا» قال سالي «لقد ترك لنا عنوانًا آخر، لتحويل البريد» قلب في مفكرة رولودكس خاصته. «ها، شخص يدعى أوليف، ك، أوليف في ويسكي كاليفورنيا»

«أليس هناك رقم للشارع؟»

«هيا يا عزيزتي، من قال إن هناك شوارع في بلدة تدعى ويسكي؟» كان سالي يقضي وقتًا طيبًا في الاستمرار بتسلية نفسه بالإضافة إلى إبقاء الفتاة السوداء الجميلة في متجره، ثم أضاف «ربما لديهم مسارات للغزلان».

غادرت برايد المتجر بسرعة لكنها أدركت بالسرعة نفسها أنه ليس هناك سيارات أجرة جوالة، واضطرت للعودة لتطلب من سالي أن يهاتف سيارة أجرة من أجلها.

صوفيا

يجب أن أحزن. اتصل أبي بمديري وأبلغه أن أمي ماتت. طلبت قرضًا لأشتري تذكرة لأسافر لحضور الجنازة مفترضة أن مراقبي سيسمح لي بالذهاب. أتذكر كل إنش من الكنيسة التي ستقام فيها الجنازة، الحوامل الخشبية للإنجيل على ظهور المقاعد، والضوء المخضر من النافذة خلف رأس المحترم ووكر(*)، ورائحة العطور والتبغ وشيء آخر، ربما كان التقوى. نظيفة ومستقيمة وصالحة جدًا لك مثل زاوية غرفة الطعام في منزل أمي. ورق الجدران باللونين الأبيض والأزرق الذي بت أعرفه أكثر مما أعرف وجهي، ورود وأزهار ليلك وياسمين بري بكل درجات الأزرق مقابل الأبيض الثلجي. كنت أقف هناك لساعتين، في توبيخ هادئ، عقاب لأمر لا أذكره الآن أو حتى وقتها، بللت ثيابي الداخلية؟ لعبت «المصارعة» مع ابن الجيران؟ كنت أتحرق للخروج من منزل أمي والزواج بأول رجل يطلب مني ذلك. قضيت سنتين معه في أمور مماثلة؛ طاعة وصمت وزاوية أكبر باللونين الأزرق والأبيض، كان التعليم هو المتعة الوحيدة التي أحظى بها.

---

* لوحة تظهر المحترم السير هنري رايبيرن وتعرف باسم الكاهن المتزلج.

ومع ذلك علي الاعتراف أن قوانين أمي رغم صرامتها ساعدتني على الصمود في ديكاجون، حتى اليوم الأول لإطلاق سراحي فأفسدت الأمر، أفسدته فعلًا. لقد ضربت تلك الفتاة السوداء التي شهدت ضدي. لقد حررني ضربها وركلها ولكمها أكثر مما فعل إطلاق السراح المشروط، كنت أشعر كما لو أنني أمزق ورق الجدران ذي اللونين الأزرق والأبيض وأعيد الصفعات وأخرج الشيطان الذي تعرفه أمي جيدًا من حياتي.

أتساءل ما الذي حدث لها، لماذا لم تستدع الشرطة، أبهجتني عيناها اللتين جمدهما الخوف حينها. فتحت الباب في الصباح التالي بوجهي المنتفخ بعد ساعات من النحيب، كان هناك خطوط رفيعة من الدم وقرط لؤلؤ قربها على الرصيف، ربما كان لها، وربما لا. لقد احتفظت به على أية حال، وما يزال في محفظتي باعتباره ماذا؟ نوع من الذكرى؟ عندما أعتني بمرضاي؛ أعيد أطقم أسنانهم إلى أفواههم وأفرك ظهورهم وأفخاذهم لتجنب تقرحات الفراش، أو عندما أدعك بالإسفنجة جلودهم الرقيقة قبل ترطيبها، أعيد تركيب تلك الفتاة السوداء ومداواتها وشكرها على الراحة.

آسفة يا أمي.

تقاسمت الشمس والقمر الأفق في صداقة قصية دون أن يزعج أحدهما الآخر. لم تنتبه برايد إلى النور وكم جعل السماء احتفالية. كانت فرشاة الحلاقة والموسى محشورتين في حقيبة الترومبيت الموضوعة في صندوق السيارة، كانت تفكر بهما إلى أن ألهتها الموسيقى في مذياع الجاغوار. كانت نينا سيمون شرسة جدًا وجعلت برايد تفكر بشيء آخر عدا نفسها. انتقلت إلى الجاز الناعم الذي كان أكثر ملاءمة للمقاعد الجلدية كما أنه كان خلفية مهدئة للقلق الذي كانت تحتاج إلى تسكينه. لم تفعل شيئًا بهذه الرعونة من قبل، ولم يكن الحب هو سبب هذا الاقتفاء، كانت تعرف، بل كان الألم أكثر من الغضب هو ما جعلها تقود إلى مقاطعة مجهولة لتعثر على الشخص الوحيد الذي وثقت به يومًا، الوحيد الذي جعلها تشعر بالأمان والاحتضان نوعًا ما. كان العالم بدونه أكثر من كونه مربك؛ كان ضحلًا باردًا عدوانيًا عن قصد، مثل الجو في منزل أمها حيث لم تكن تعرف الصواب لتفعله أو تقوله أو لتتذكر ما هي القوانين، هل تترك الملعقة في طبق حبوب الإفطار أو تضعها قرب الطبق، هل تعقد رباط حذائها بعقدة الفراشة أو بعقدة مضاعفة، هل تطوي جواربها أو تجعلها مستقيمة على ربلة ساقها؟ ما

هي القوانين ومتى تغيرت؟ عندما لوثت شرشفها بدم حيضها الأول صفعتها سويتنس ودفعتها في حوض من الماء البارد. خفف صدمتها لمسة أمها التي كانت تتحاشى التواصل الجسدي كلما أمكن ذلك.

كيف استطاع ذلك؟ لماذا تركها مجردة من كل الراحة والأمان العاطفي؟ نعم، كانت ردة فعلها السريعة على خروجه سخيفة وغبية، مثل سخرية تلميذ في الصف الثالث لا يملك أدنى لمحة عن الحياة.

كان جزءًا من الألم، لم يكن مخلّصًا على الإطلاق، وقد صارت حياتها فوضى بسببه، قطعها التي خاطتها سويًا: الشخصية الفاتنة والسلطة في مهنة مثيرة وإبداعية والحرية الجنسية والأكثر من ذلك الدرع الذي حماها من أي إحساس مفرط الحدة، سواء أكان الغضب أو الحرج أو الحب. لم تكن ردة فعلها على الهجوم الجسدي أقل جبنًا من ردة فعلها على الانفصال المفاجئ غير المبرر، فالأول منحها الدموع والثاني منحها شطحة «حسن، وماذا يعني» كان تعرضها للضرب على يد صوفيا مثل صفع سويتنس لها دون مسرة اللمس، كلاهما أكد عجزها في حضور القسوة المربكة.

كانت ضعيفة جدًا وخائفة جدًا من التصدي لسويتنس أو مالك البناية أو صوفيا هكسلي، ولم يبق شيء لفعله سوى الدفاع عن نفسها ومواجهة أول رجل عرت روحها أمامه دون أن تعي أنه كان يسخر منها، وقد يتطلب الأمر شجاعة كانت تظن أنها تتحلى بالكثير منها لكونها ناجحة في مهنتها، الشجاعة والجمال المذهل.

حسب ما قاله الرجال في متجر سالي كان من مكان يدعى ويسكي، وقد يكون عاد إلى هناك أو لا، وقد يكون يعيش مع الآنسة ك. أوليف، امرأة أخرى لا يريدها، أو ربما انتقل. مهما كان الأمر، كانت برايد

ستقتفي أثره وتجبره على أن يشرح لماذا لا تستحق منه معاملة أفضل، وثانيًا ما الذي عناه بقوله «لست المرأة»؟ من؟ هذه المرأة هنا؟ هذه التي تقود الجاغوار مرتدية ثوبًا من صوف الكشمير بلون أبيض المحار وحذاء من فراء الأرانب الناعم بلون القمر؟ الجميلة حسب ما يقوله كل من يملك عينين، التي تدير قسمًا رئيسًا في شركة قيمتها مليار دولار؟ المرأة التي كانت تتخيل خطوط منتجات جديدة كالرموش مثلًا. بالإضافة إلى النهدين كانت كل امرأة (سواء من النمط الذي يحب أم لا) ترغب بالحصول على رموش أطول وأكثف، امرأة قد تكون نحيلة مثل الكوبرا وتتضور جوعًا لكن إن كان لديها نهدان بحجم ثمرتي جريب فروت وعينان كعيني الراكون فستكون سعيدة حد الهذيان. هذا صحيح، ستعمل على ذلك بعد هذه الرحلة.

أصبح الطريق السريع أقل ازدحامًا حين اتجهت إلى الشرق ثم إلى الشمال، وظنت أنه سرعان ما ستحف الغابات بالطريق كما تفعل الأشجار دومًا، وفي غضون ساعات قليلة ستكون في ريف الوادي الشمالي: مخيمات الحطابين والقرى التي لم تكن أكبر منها والطرق الرملية القديمة قدم القبائل. حين أصبحت على طريق الولاية السريع قررت أن تبحث عن مطعم لتتناول الطعام وتنتعش قليلًا قبل القيادة في أرض قليلة وسائل الراحة. كانت هناك مجموعة من العلامات على لوحة إعلانات تروج لعلامة تجارية واحدة للغاز وأربع للطعام واثنتين للمبيت. وبعد ثلاثة أميال تركت برايد الطريق السريع وانعطفت نحو الواحات. كان المطعم الذي اختارته نظيفًا وخاليًا، ولم تكن رائحة التبغ والجعة حديثة ولا كان العلم الكونفدرالي المؤطر الذي ضم العلم الأمريكي الرسمي.

«نعم؟» كانت عينا نادلة الطاولة واسعتين وشاردتين، وقد اعتادت برايد هذه النظرة إلى جانب حركة الفم المفتوح التي ترافقها. كانت تذكرها بالاستقبال الذي حظيت به في أيامها الأولى في المدرسة، صدمة كما لو كان لها ثلاث عيون.

«هل لي بطبق من الأومليت الأبيض ودون جبن؟»

«أبيض؟ تعنين بلا بيض؟»

«لا، أعني بلا صفار»

أكلت برايد بقدر ما استطاعت من هذه النسخة المتخلفة من الطعام سهل الهضم ثم سألت عن حمام السيدات، وتركت ورقة نقدية بقيمة خمسة دولارات على الطاولة كي لا تظن النادلة أنها تتهرب. في الحمام تأكدت أنه ما زال هناك سبب يدعوها للقلق حول عانتها الناعمة، ثم وقفت أمام المرآة التي تعلو المغسلة ولاحظت أن تقويرة ثوب الكشمير كانت مائلة ومنزلقة نحو الأسفل كثيرًا وأظهرت كتفها الأيسر. وجدت وهي تعديل التقويرة أن انزلاق الثوب لم يكن بسبب جلسة خاطئة أو عيب في الصنع، لقد تهدل الثوب كما لو أنها اشترت قياس ٤ بدلًا من ٢ ولاحظت الفرق لتوها فقط، لكن الثوب كان يناسبها تمامًا عندما بدأت هذه الرحلة، وخطر لها أن يكون ذلك بسبب عيب في القماش أو التصميم، أو أنها خسرت وزنًا بسرعة. ليست مشكلة، ليس هناك شيء مهم في عملها بقدر أن تكون نحيلة، سيكون عليها اختيار ثيابها بعناية. أخافها تذكر التغير الذي طرأ على شحمتي أذنيها لكنها لم تجرؤ على ربطه بالتغيرات الأخرى في جسدها.

سألت برايد عن الطريق المؤدي لويسكي و هي تسترد باقي الحساب

لتمضي في رحلتها.

«إنها ليست بعيدة جدًا» قالت النادلة ذات العينين المندهشتين بابتسامة متكلفة «على بعد مئة ميل أو ربما مئة وخمسين، ستصلينها قبل حلول الظلام».

هل هذا ما يسميه حثالة المناطق النائية «ليس بعيدًا» تساءلت برايد. مئة وخمسون ميلًا؟ ملأت خزان الوقود وفحصت عجلات السيارة وقادت على الطريق المنحني بعيدًا عن الواحات لتصل إلى الطريق السريع. وعلى عكس تأكيدات النادلة، كان الظلام شديدًا حين رأت المخرج الذي لم يكتب عليه رقم بل اسم، طريق ويسكي.

لقد كان معبدًا على الأقل، صحيح أنه ضيق ومتعرج لكنه معبد. وربما وثقت لهذا السبب بالوميض الشديد للمصابيح الأمامية وزادت سرعتها، ولم ترها قادمة أبدًا. انزلقت السيارة في انعطافة حادة على الطريق واصطدمت بما يجب أن يكون الشجرة الأولى والأكبر في العالم محاطة بشجيرات غطت جذعها الأسفل. صارعت برايد الحقيبة الهوائية وتحركت بسرعة في هلع دون أن تنتبه إلى قدمها العالقة والملتوية في الفراغ بين دواسة المكابح والباب المحدب إلى أن وقعت أرضًا من الألم بعد محاولة تحريرها. تمكنت من فك حزام الأمان لكن لم يساعدها ذلك، فاستلقت هناك بصعوبة على مقعد السائق محاولة تحرير قدمها من الحذاء الأنيق ذي فراء الأرنب، لكن محاولاتها كانت مؤلمة ومستحيلة، واستطاعت الوصول إلى هاتفها الخلوي بالتمدد والالتواء، غير أن شاشته كانت فارغة إلا من عبارة «لا توجد خدمة». كان احتمال مرور سيارة ضئيلًا في الظلام لكنه وارد، فضغطت على بوق السيارة، مستميتة في الضغط آملة أن يفعل أكثر من إخافة البوم، لكنه لم يخف شيئًا لأنه

لم يصدر صوتًا، ولم يكن أمامها ما تفعله سوى الاستلقاء هناك لما تبقى من الليل، خائفة، غاضبة، متألمة ، باكية بالتعاقب. كان القمر يبتسم بلا أسنان وحتى النجوم التي ترى عبر غصن الشجرة الذي وقع مثل ذراع خانقة على الزجاج الأمامي أخافتها. كانت قطعة السماء التي لمحتها بساطًا داكنًا من السكاكين اللامعة مسددة إليها وتتوق لإطلاقها. كانت تشعر بألم شديد، بإدراك لقوى خبيثة تحولها من مغامِرة جسورة إلى مشردة.

نوهت الشمس بشروقها فحسب، شريحة مشمش تداعب السماء بوعد لإظهار نفسها كاملة. شعرت برايد، التي يجلدها تشنج الجسد وألم الساق، ببصيص أمل مع بزوغ الفجر. سائقو دراجات نارية بلا خوذات، شاحنة مزدحمة بالحطابين، مغتصب متسلسل، صبي على دراجة، صياد دببة، أليس هناك من يقدم المساعدة؟ وفي أثناء تخيلها لمن أو لما سينقذها ظهر وجه صغير أبيض بلون العظام عند نافذة المقعد الجانبي، فتاة صغيرة جدًا تحمل هرة سوداء حدقت بها بعينيها الأكثر خضرة رأتهما برايد في حياتها.

«ساعديني أرجوك، ساعديني» كانت برايد ستصرخ لكنها لم تملك القوة.

نظرت إليها الفتاة طويلًا ثم استدارت واختفت.

«أوه يا إلهي» همست برايد. هل كانت تهلوس؟ إن لم تكن كذلك فلا بد أن الفتاة ذهبت لجلب المساعدة. لا أحد، سوى المتخلفين عقليًا أو العنيفين بالوراثة، كان سيتركها هناك، أليس كذلك؟ فجأة، أخافتها الأشجار المحيطة التي أصبحت حية مع الفجر كما لو أنها لم تكن كذلك ليلًا، وكان الصمت مخيفًا، فقررت أن تدير محرك السيارة وتعود إلى

الوراء وتخرج الجاغوار من هناك، بالقدم أو دونها. وحين أدارت مفتاح التشغيل إلى الصوت الخافت للبطارية الفارغة ظهر رجل له لحية وشعر أشقر طويل وعينان سوداوان ضيقتان. مغتصب؟ قاتل؟ ارتعدت برايد وهي تراه ينظر إليها عبر النافذة، ثم رحل. ما بدا ساعات لبرايد كان مجرد دقائق قليلة قبل أن يعود بمنشار وعتلة. كانت تبلع ريقها متصلبة من الخوف وهي تراقبه يبعد الغصن بالمنشار عن غطاء المحرك، ثم أخرج ملزمة من جيبه الخلفي رفع الباب وخلعه. أدهشت صرخة برايد المتألمة الفتاة ذات العينين الخضراوين التي تقف قريبًا وتراقب المشهد فاغرة فاها. حرر الرجل قدم برايد بحذر من تحت دواسة المكابح وبعيدًا عن باب السيارة المحطم، وتدلى شعره إلى الأمام حين رفعها عن مقعد السيارة بصمت ودون أن يطرح الأسئلة ودون أن يقول لها كلامًا مهدئًا وضعها بين ذراعيه. حمل برايد- والفتاة ذات العينين الزمرديتين تتبعهما- لنصف ميل على ممر ترابي يؤدي إلى مبنى يشبه المستودع الذي قد يكون للقاتل منزلًا. محاطة بذراعيه وبألم شديد قالت له: «لا تؤذني، أرجوك لا تؤذني» مرة تلو أخرى قبل أن تفقد الوعي.

***

«لماذا لها بشرة سوداء جدًا؟»

«للسبب نفسه الذي يجعل بشرتك بيضاء جدًا».

«أوه، تعنين مثل هرتي؟»

«نعم، لقد ولدت هكذا».

تململت برايد. يا له من حوار سلس بين الأم وابنتها. كانت تتظاهر بالنوم وتسترق السمع من تحت بطانية نافايو، وكاحلها مسنود بوسادة

وينبض من الألم في حذائه ذي الفراء. جلبها الرجل المنقذ برايد إلى منزله هذا وبدلًا من اغتصابها وتعذيبها طلب من زوجته العناية بها وقاد شاحنته قائلًا إنه ليس متأكدًا لكن هناك أمل بأن يعثر على الطبيب الوحيد في المنطقة رغم أن الوقت باكر جدًا، وقال الرجل الملتحي إنه لا يظنه مجرد التواء، بل قد يكون الكاحل قد كسر، ودون خدمة الهاتف لم يكن أمامه خيار سوى الذهاب بشاحنته إلى القرية لإحضار الطبيب.

«اسمي إيفلين» قالت الزوجة «وزوجي ستيف، وأنت؟»

«برايد، برايد فقط» ولأول مرة لم يبدُ اسمها المختلق أنيقًا بل بدا مثل أسماء نجوم هوليوود وصبياني. كان ذلك إلى أن اتجهت إيفلين نحو الفتاة ذات العينين الزمرديتين «برايد، هذه ريزين، في الحقيقة نحن أسميناها رين (المطر) لأننا وجدناها هناك لكنها تفضل أن ندعوها ريزين».

«شكرًا يا ريزين لقد أنقذت حياتي فعلًا» قالت برايد ممتنة لاسم تافه آخر جعل دمعتها تحفر على وجنتها. أعطتها إيفلين واحدًا من قمصان زوجها ذي مربعات مثل قميص حطاب بعد أن ساعدتها على خلع ثيابها.

«هل أعد لك فطورًا؟ شوفان؟» سألت «أو بعضًا من الخبز الدافئ والزبدة، لا بد أنك علقت هناك طوال الليل».

رفضت برايد بلطف كما تأمل. كانت تود أن تحظى بقسط من النوم.

طوت إيفلين البطانية حول ضيفتها منتبهة إلى الساق المسنودة بوسادة دون أن تتضايق من الهمس أثناء حديث الهرة البيضاء أو السوداء وهي تتجه إلى المغسلة. كانت امرأة طويلة بأرداف ليست جميلة وضفيرة

كستنائية طويلة تتأرجح أسفل ظهرها. كانت تذكر برايد بممثلة ما رأتها في فيلم، ليس فيلمًا حديثًا بل من الأربعينيات أو الخمسينيات حين كانت وجوه نجوم السينما مميزة عما هي عليه الآن، وحين كانت تصفيفة الشعر وحدها تميز نجمة عن أخرى، لكنها لم تتذكر الاسم، اسم الفيلم أو الممثلة. من جانب آخر، لم تكن ريزين الصغيرة تشبه أحدًا رأته برايد من قبل، وجه أبيض كالحليب وشعر أبنوسي وعيون ساطعة مثل النيون بعمر غير معروف.

ماذا قالت إيفلين «وجدناها هناك»؟ في المطر.

بدا منزل إيفلين وستيف كأنه كان مشغلًا أو مصنعًا في السابق، غرفة واحدة كبيرة ومائدة متوسطة وكراسي ومغسلة وموقد حطب والأريكة الخشنة التي كانت تستلقي عليها برايد. على أحد الجدران أسند نول وسلال صغيرة من الغزل قربه، وفي الأعلى كوة كانت تحتاج تنظيفًا قويًا. كان الضوء يتنقل كالماء في أرجاء الغرفة دون دعم من الكهرباء، يمكن للظل أن يختفي هنا سريعًا؛ ويحتاج صوت عصا تقرع على قدر نحاسية إلى دقائق كي يتبدد. كشف الباب المفتوح على القسم الخلفي عن غرفة بسريرين قائمين أحدهما من الشبك و الآخر من الحديد. كان هنالك شيء لحمي مثل الدجاج يشوى في الفرن بينما كانت إيفلين والفتاة الصغيرة تقطعان الفطر والفلفل الأخضر على طاولة خشنة مصنوعة منزليًا، وبدأتا الغناء دون تنبيه أغنية هيبية قديمة غبية.

«هذه الأرض لك، هذه الأرض لي....»

تذكرت برايد على الفور ذكرى مشرقة لسويتنس وهي تدندن بأغنية بلوز وهي تغسل جواربها الطويلة في الحوض، وكانت لولا آن الصغيرة تختبئ خلف الباب لتسمعها، كم جميل لو كانت الأم وابنتها تغنيان معًا.

وغطت في نوم عميق وهي تعانق ذلك الحلم، وأيقظها عند الظهيرة سماع أصوات ذكورية مدوية. دخل إلى المنزل ستيف ومعه طبيب مسن جدًا ومتغضن.

«هذا والت» قال ستيف، ووقف قرب الأريكة مظهرًا ما يشبه الابتسامة.

«د. موسكي» قال الطبيب «والتر موسكي، طبيب عام، أحمل درجة الدكتوراه في الطب والقانون والمبيدات الحشرية والإدارة المالية».

ضحك ستيف «إنه يمزح»

«أهلًا» قالت برايد وهي تنقل وجهها بين قدمها ووجه الطبيب قائلة» آمل ألا يكون الأمر سيئًا جدًا»

«سنرى» أجاب د. موسكي

تأوهت برايد حين شق الطبيب حذاءها الأبيض الأنيق، فحص الطبيب الكاحل بدقة ودون تعاطف وقال إنه مكسور على الأرجح ولا يمكن علاجه في منزل ستيف، وعليها الذهاب إلى العيادة للتصوير بالأشعة الجبيرة وما إلى ذلك، وكل ما استطاع فعله هو تنظيف القدم وثنيها كي لا يزداد تورمها سوءًا.

رفضت برايد الذهاب، وشعرت بالجوع فجأة ما جعلها غاضبة، وأرادت أن تستحم وتأكل قبل أن تؤخذ إلى عيادة ريفية وضيعة أخرى، وأثناء ذلك طلبت من د. موسكي بعض المسكنات.

«لا» قال ستيف «مستحيل، الأمور المهمة أولًا، ثم إننا ليس لدينا النهار كله».

حملها ستيف إلى شاحنته وحشرها بينه وبين الطبيب وانطلقوا. اعترفت بعد ساعتين حين كان كلاهما يتجه إلى المنزل عائدين من العيادة أن الجبيرة قد سكنت ألمها والأقراص كذلك. كانت عيادة ويسكي تقع على الطرف المقابل من مكتب بريد في الطابق الأول من مبنى خشبي باللون الأزرق البحري والذي ضم أيضًا محلًا للحلاقة. كانت النوافذ في الطابق الثاني تعرض ثيابًا مستعملة. فكرت برايد أنه بقدر ما كانت غرفة الفحص قديمة، إلا أنها فاجأها أن الأدوات كانت متطورة مثل أدوات جراح تجميلها.

ابتسم د. موسكي لمفاجأتها وقال «الحطابون مثل الجنود يصابون بأسوأ الجروح ويحتاجون الرعاية الأفضل والأسرع».

أخبرها د. موسكي بعد تفحص الصورة على السونوجرام أنها ستعيش لكنها ستحتاج شهرًا على الأرجح لتتعافى وربما ستة أسابيع «رباط» قال لمريضته غير المستوعبة «بين الشظية والظنبوب، قد تحتاجين لجراحة وقد لا تحتاجين إن فعلت ما أقوله لك».

وضع كاحلها في جبيرة قائلًا إنه سيصنع لها قالبًا حين يخف التورم وإن عليها العودة إلى مكتبه من أجل ذلك.

بعد ساعة عادت إلى الشاحنة تجلس قرب ستيف الصامت مثبتة ساقها اليسرى باستقامة تحت لوحة القيادة بقدر ما سمحت لها الجبيرة، وبعد أن أعيدت محمولة إلى المنزل وجدت برايد أن جوعها قد تبدد بعد أن إدراكها أنها لم تغتسل وغمرتها رائحة لاذعة.

قالت «أود أن أستحم، من فضلك»

«ليس لدينا حمام» قالت إيفلين «يمكنني أن أنظفك بالإسفنجة

مؤقتًا، وحين يتعافى كاحلك سأسخن لك المياه لتستحمي بالحوض».

جرة لغسيل اليدين، مرحاض خارجي، حوض استحمام معدني، أريكة خشنة مكسورة من الأسفل لشهر؟ بدأت برايد بالبكاء وتركوها بينما تابعت رين وإيفلين تحضير الطعام.

حاولت برايد لاحقًا بعد أن أنهت العائلة طعامها أن تتغلب على حرجها وقبلت حوضًا من الماء البارد لغسل وجهها وإبطيها، ثم رفعت نفسها بما يكفي لتبتسم وتأخذ الطبق الذي تركته لها إيفلين قبلًا. تبين أنه طائر السمان وليس الدجاج مع صلصة فطر كثيفة. بعد الطعام شعرت برايد بأكثر من الحرج، شعرت بالخزي، كانت تبكي في كل لحظة بنزق وصبيانية غير راغبة في مساعدة نفسها أو قبول العون من الآخرين بامتنان. كانت هنا بين أشخاص يعيشون الحياة الأكثر فقرًا لكنهم يقدمون على مساعدتها دون تردد ودون انتظار مقابل، ومع ذلك، كما هو الحال دومًا لم يكن إحراجها وعرفانها بالجميل يدومان طويلًا. كانوا يعاملونها كقطة ضالة أو كلب بساق مكسورة ويشعرون بالأسف من أجلها. سألت إيفلين - بعد أن تجهمت وغضبت لرؤية أظافرها- إن كان لديها مبرد أو طلاء للأظافر، فابتسمت إيفلين ورفعت لها يديها دون أن تتكلم. علي القول إن يدي إيفلين كانتا ملائمتين للتقطيع وإشعال النار ونزع رؤوس الدجاج أكثر من الإمساك بكأس النبيذ. تساءلت برايد من يكون هؤلاء الناس، ومن أين أتوا؟ لم يسألها أحد من أين هي أو إلى أين كانت تذهب، بل ببساطة اعتنوا بها وأطعموها ورتبوا أمر قطر سيارتها لإصلاحها. كان صعبًا جدًا وغريبًا جدًا بالنسبة لها أن تفهم نوع الرعاية التي يقدمونها بلا مقابل ودون إطلاق أحكام أو حتى فضول عابر حول من تكون وإلى أين كانت تذهب. كانت تتساءل

أحيانًا إن كانوا يخططون لأمر ما، أمر سيء، لكن الأيام مرت دون أن يتبدد الضجر. كان ستيف وإيفلين أحيانًا يقضيان الوقت بعد العشاء خارجًا يغنيان للبيتلز أو سايمون وجارفنكل، كان ستيف يعزف على الجيتار وترافقه إيفلين بصوت رفيع بلا نغمة، كانت ضحكتاهما تجلجلان بين نسيان الكلمات والنغمات المفقودة.

في الأسابيع التالية من الزيارات الكثيرة للعيادة وتمارين الساق وانتظار إصلاح الجاغوار، علمت برايد أن مضيفيها في الخمسينيات، وأن ستيف تخرج من كلية ريد وإيفلين من جامعة أوهايو. وقصا لها كيف التقيا بضحك متواصل، في البداية في الهند (رأت برايد نور الذكريات السارة يشع من النظرات التي يتبادلانها) ثم في لندن ومرة أخرى في برلين وأخيرًا في المكسيك قررا أن يتوقفا عن اللقاء بهذه الطريقة (لمس ستيف وجنة إيفلين بظاهر يده) وتزوجا في تيجوانا و«انتقلا إلى كاليفورنيا ليحظيا بحياة حقيقية».

كان حسد برايد وهي تراقبهم صبيانيًا لكنها لم تستطع منع نفسها، «بقولكما حقيقية تعنيان فقيرة؟» وابتسمت لتخفي تهكمها.

«ما الذي تعنيه كلمة فقيرة؟ دون تلفاز؟» رفع ستيف حاجبيه

«إنها تعني دون مال» قالت برايد

«الأمر نفسه، دون مال يعني دون تلفاز» أجاب

«تعني دون غسالة أو ثلاجة أو حمام، دون مال»

«هل أخرجك المال من الجاغوار؟ هل أنقذ المال مؤخرتك؟»

أغمضت برايد عينيها لكنها كانت ذكية بما يكفي لئلا تقول شيئًا،

ما الذي تعرفه على أية حال عن الخير لأجل الخير أو الحب دون مقابل؟

مكثت معهم ستة أسابيع صعبة بانتظار أن تتمكن من المشي وإصلاح سيارتها. فيما يبدو اضطروا في ورشة التصليح الوحيدة للبحث عن مفصلات جديدة أو باب جديد تمامًا للجاغوار. كانت برايد تشعر بنومها في منزل غارق في عتمة عميقة كهذه كما لو أنها في تابوت، كانت السماء مثقلة بنجوم أكثر مما سبق لها رؤيته، ولكن هنا في الداخل تحت الكوة القذرة ودون كهرباء وجدت صعوبة في النوم.

عاد د. موسكي أخيرًا ليزيل لها الجبيرة ويعطيها دعامة سهلة النزع للقدم. لمحت الجلد المقزز الذي كان مخبأ تحت الجبيرة وارتعدت. كان أفضل شيء، أفضل حتى من إزالة الجبيرة، إيفاء إيفلين بوعدها وهي تصب دلوًا تلو الآخر من الماء الساخن في حوض الاستحمام من الزنك، ثم قدمت لبرايد إسفنجة ومنشفة ولوح صابون بني قليل الرغوة. وبعد أسابيع من الاستحمام كالعصافير غطست برايد في الحوض بامتنان مرغية الصابون إلى أن أصبح الماء باردًا تمامًا. حين نهضت لتجفف نفسها رأت أن صدرها صار مسطحًا، مسطحًا كليًا وكانت الحلمتان الأمر الوحيد الذي أكد لها أن هذا ليس ظهرها. كانت صدمتها كبيرة وأوقعتها في الماء المتسخ وهي تضع المنشفة على صدرها مثل درع.

لا بد أنني مريضة، أحتضر. فكرت. ألصقت المنشفة المبللة فوق المكان الذي كان فيه نهداها ذات يوم يبديان نفسيهما ويرتفعان لشفاه العشاق المتأوهين. نادت إيفلين كي تقاوم الهلع.

«هل لديك ما أرتديه من فضلك؟»

«بالتأكيد» قالت إيفلين وأحضرت لبرايد بعد عدة دقائق قميصًا

بأكمام قصيرة وسروال جينز من ثيابها، ولم تقل شيئًا عن صدر برايد أو المنشفة المبللة، بل غادرت ببساطة لتتركها ترتدي ثيابها على انفراد. وعندما نادتها برايد ثانية قائلة إن سروال الجينز كان كبيرًا ولا يثبت على خصرها، أبدلته لها إيفلين بواحد من سراويل رين الذي ناسب برايد تمامًا، فتساءلت متى أصبحتُ هزيلة؟

تعمدت أن تستلقي لبضع دقائق لتسكن الخوف وتستجمع أفكارها وتحاول معرفة ما الذي يحدث لجسدها المنكمش، ولكن دون نعاس أو إنذار غطت في النوم، وحينها بزغ حلم مشرق حقيقي جدًا من الفسحة المعتمة. كانت يد بوكر تتحرك بين فخذيها وحين رفعت ذراعيها وطوقت بهما ظهره رفع أصابعه وانزلق بين ساقيها إلى ما يسمونه فخر الأمم وثروتها. أخذت تهمس أو تتأوه لكن شفتيه تضغطانها، فلفت ساقيها حول ردفيه المرتجين كما لو أنها تريد إبطاء حركتهما أو مساعدتهما أو إبقاءهما هناك. استيقظت برايد رطبة وهي تهمهم، ومع ذلك حين لمست الموضع الذي كان فيه نهداها يومًا تحولت الهمهمة إلى نشيج. عندها أدركت أن تغيرات جسدها لم تبدأ بعد رحيله بل لأنه رحل.

فكرت بسكون أن ذهنها كان مشوشًا لكنها ستصفيه وتتصرف كما لو كان كل شيء طبيعيًا. يجب ألا يعلم أحد بذلك وألا يراه أحد، ويجب أن يكون حديثها ونشاطها كالمعتاد، مثل غسل الشعر بعد الاستحمام. عرجت نحو مغسلة المطبخ وصبت ماء من الإبريق في طبق، ووضعت الصابون على شعرها ثم غسلته، وحين كانت تبحث عن منشفة جافة دخلت إيفلين.

«أوه برايد» قالت مبتسمة «شعرك كثيف جدًا لتجففيه بمنشفة الأطباق. تعالي، لنجلس خارجًا ونجفف شعرك تحت ضوء الشمس

والهواء النقي».

«حسن، طبعًا» قالت برايد ورأت أن التظاهر بأن كل شيء على ما يرام كان مهمًا، فقد يعيد تغيير الجسد أو يوقفه. تبعت إيفلين إلى مقعد حديدي صدئ وجلست في الفناء لتستحم بالضوء البلاتيني المشرق، قرب المقعد كان هناك طاولة جانبية عليها علبة من الماريجوانا وزجاجة بلا لصاقة من الكحول. كانت إيفلين تتحدث بأحاديث صالونات التجميل المعتادة وهي تجفف شعر برايد. كم هي سعيدة الحياة هنا تحت النجوم مع رجل رائع أحبها، وكم تعلمت من السفر وتدبير المنزل دون وسائل حديثة كانت تسميها نفايات معدة للطرح ،لأن لا شيء منها يدوم، وكيف أن رين جملت حياتهما.

حين سألتها برايد متى ومن أين جاءت رين، جلست إيفلين وسكبت بعضًا من الكحول في كوب.

«لقد استغرق الأمر فترة لنفهم القصة كاملة» قالت. كانت برايد تصغي باهتمام، أي شيء، أي شيء لتتوقف عن التفكير بتغيرات جسدها وثانيًا لتتأكد أن أحدًا لم ينتبه. حين قدمت لها إيفلين القميص بعد أن خرجت من حوض الاستحمام، لم تلاحظ إيفلين ولم تقل شيئًا. كان لبرايد نهدان رائعان عند إخراجها من الجاغوار، وكانا هناك حين ذهبت إلى عيادة ويسكي، لكنهما اختفيا الآن مثل جراحة رديئة استئصال للثدي تركت الحلمتين سليمتين. لم يكن هناك ما يؤلمها؛ كانت أعضاؤها تعمل كالمعتاد عدا تأخر دورتها الشهرية على نحو غريب، فما هو المرض الذي أصابها؟ مرض ظاهر وخفي معًا. هو، فكرت، تلك لعنته.

«هل تريدين بعضًا؟» قالت إيفلين وهي تشير إلى علبة الصفيح.

«نعم» كانت تراقب إيفلين الخبيرة وأخذت النتيجة بامتنان، سعلت عند السحبة الأولى ولكن ليس بعد ذلك.

كانتا تدخنان بصمت لوهلة إلى أن قالت برايد «أخبريني ماذا قصدت بقولك وجدناها تحت المطر».

«هذا صحيح، كنا ستيف وأنا عائدين إلى المنزل من مظاهرة ما، نسيت لم كانت، ورأينا هذه الفتاة الصغيرة تبكي مبللة عند عتبة باب حجرية. كان لدينا وقتها سيارة فولكس واجن قديمة فأبطأ سرعته، وداس على المكابح. ظن كلانا أنها تائهة أو أضاعت مفاتيحها. أوقف السيارة وترجل وذهب ليرى ما الأمر، سألها عن اسمها أولًا».

«ماذا قالت؟»

«لا شيء، لم تنطق بكلمة. كانت مبللة وأدارت رأسها بعيدًا عندما قرفص ستيف أمامها، لكن يا للهول! حين لمس كتفها قفزت وأخذت تجري تحت المطر بحذاء تنس مبلول، فعاد إلى السيارة لنكمل طريقنا إلى المنزل. حينها بدأ المطر ينهمر بقوة ووجدنا صعوبة في الرؤية عبر الزجاج الأمامي، فانتظرنا توقفه وأوقفنا السيارة قرب مطعم، كان يدعى مطعم برونو. على أية حال بدلًا من الجلوس في السيارة دخلنا بحثًا عن مأوى أكثر من سعينا للقهوة التي طلبناها».

«إذن فقدتماها؟»

«حينها نعم» قالت إيفلين وقد جف ريقها فصبت كوبًا آخر ورشفت منه.

«هل عادت؟»

«لا، لكن عندما توقف المطر وغادرنا المطعم، رأيتها منحنية على حاوية القمامة في الزقاق خلف المبنى».

«يا إلهي» قالت برايد مرتعدة كما لو أنها كانت هي نفسها في الزقاق.

«قرر ستيف ألا يتركها، ولم أكن متأكدة إن كان ذلك يعنينا لكنه ذهب وأمسك بها وحملها على كتفه. كانت تصرخ «اختطاف! اختطاف!» لكن ليس بصوت عالٍ. لا أظنها أرادت لفت الانتباه خاصة من الخنازير أعني رجال الشرطة. دفعناها إلى المقعد الخلفي وأجلسناها وأغلقنا الأبواب».

«هل هدأت؟»

«أوه لا. بل ظلت تصرخ «دعاني أخرج» وكانت تركل ظهر مقعدينا. حاولت التحدث إليها بنبرة خفيضة لئلا تصاب بالذعر منا. قلت «إنك مبتلة يا عزيزتي» فقالت: «إنها تمطر يا عاهرة» فسألتها إن كانت أمها تعلم بجلوسها في الخارج تحت المطر وقالت «نعم، وماذا إذن؟» لم أعرف كيف أرد على هذا الجواب، وبدأت بعدها بإطلاق الشتائم، الكلمات الأقذر التي يمكنك تخيلها على لسان طفلة».

«حقًا؟»

«نظرنا ستيف وأنا إلى بعضنا ودون أن ننطق بكلمة قررنا ما سنفعل، سنجففها وننظفها ونطعمها ثم نحاول معرفة أهلها».

«قلت إنها كانت في السادسة تقريبًا عندما وجدتماها؟» سألت برايد

«أظن ذلك، لا أعرف حقًا. لم تقل أبدًا وأشك أنها تعرف. كانت أسنانها اللبنية قد سقطت حين أخذناها، ولم تختبر دورتها الشهرية أبدًا

ولأن صدرها كان مسطحًا مثل لوح تزلج».

صمتت برايد. فبمجرد ذكر الصدر المسطح عادت إلى التفكير بمشكلتها. ولو لم يمنعها كاحلها لكانت ركضت وانطلقت كالصاروخ بعيدًا عن الشك المخيف بأنها كانت تتحول لتعود طفلة سوداء صغيرة.

بعد يوم وليلة هدأت برايد قليلًا، مادام لم يلاحظ أحد أو يذكر التغيرات في جسدها، كم كان القميص مسطحًا على صدرها وشحمتي الأذنين العذراوين. كانت الوحيدة التي تعرف بأمر الشعر غير الحليق بل المفقود على العانة والإبطين، لذا قد يكون هذا كله مجرد هلوسة، مثل الأحلام الحية التي كانت تراها عندما تتمكن من النوم، أو هل كانت الأحلام كذلك؟ استيقظت مرتين في الليل لتجد رين تقف أو تقرفص قربها، لم تكن تهددها بل تراقبها فقط، لكن حين كانت تتحدث إلى الفتاة كانت تختفي.

عاجزة وخاملة، اتضح لبرايد لِمَ كان الملل يحارَب بشدة. كان الذهن، بلا إلهاء أو نشاط جسدي، يدور بلا هدف في ذكريات متناثرة تستمر وتستمر، وقد يكون القلق المركز تحسنًا بعد مزق الأفكار المفككة. عدا عن التماسك الضئيل لحلم كان ذهنها يتنقل بين التفكير بحالة أظافرها إلى السير تحت عمود الإنارة ذات مرة، ومن انتقاد ثوب فنانة مشهورة إلى حالة أسنانها. كانت عالقة في مكان بدائي جدًا لم يكن فيه مذياع وهي تراقب الزوجين يمضيان لشؤونهما اليومية، البستنة والتنظيف والطبخ والحياكة وجز العشب وقطع الخشب والتعليب. لم يكن هناك من تتحدث إليه، على الأقل في أمر تهتم به. وقد كان رفضها القاطع التفكير ببوكر ينهار دائمًا. ماذا لو أنها لم تستطع العثور عليه؟ ماذا لو أنه لم يكن مع السيد أو السيدة أوليف؟ لن يكون كل شيء على ما يرام

إن فشلت في العثور عليه، وإن نجحت فماذا سنقول أو تفعل؟ انتابها شعور أن كل من مر في حياتها أهانها ورفضها باستثناء شركة «سيلفيا المتحدة». كان بوكر الوحيد الذي تستطيع مواجهته والذي كان يعني مواجهة نفسها، الدفاع عن نفسها. ألم تكن تستحق شيئًا؟ أي شيء؟

كانت تفتقد بروكلين التي تراها صديقتها الحقيقية الوحيدة، المخلصة المرحة اللطيفة، من سواها قد يقطع كل تلك الأميال بعد ذلك الرعب الدموي في نزل رخيص ويعتني بها جيدًا؟ فكرت أنه ليس عدلًا، أن تتركها في عتمة مماثلة لما كانت هي فيه. طبعًا لم تستطع إخبار صديقتها عن سبب رحلتها. كانت بروكلين ستصرفها عن ذلك أو أسوأ من هذا كانت ستسخر منها وتضحك عليها، وتقنعها بأن هذه الفكرة رعناء وطائشة، ورغم ذلك كان من الصواب الاتصال بها.

قررت برايد بما أنها لم تتمكن من الاتصال هاتفيًا أن ترسل إليها ملاحظة، وحين سألت قالت لها إيفلين أنها لا تملك أي قرطاسية لكنها قدمت لبرايد صفحة من دفتر ملاحظات تستخدمه لتعليم رين الكتابة، ووعدتها إيفلين أنها ستجعل ستيف يرسلها بالبريد.

كانت برايد خبيرة في كتابة مذكرات العمل وليس بالرسائل الشخصية، ماذا عليها أن تكتب؟

أنا بخير، حتى الآن..؟

آسفة لرحيلي دون إخبارك..؟

علي أن أفعل هذا وحدي لأنه..؟

تفحصت أظافرها بعد أن وضعت قلم الرصاص جانبًا.

كان صوت حياكة إيفلين على النول يريحها عادة، لكن اليوم كانت نقرات المكوك والدواسة مزعجة جدًا. أينما سافرت أفكارها كان احتمال الخزي ينتظرها في النهاية. لنفترض أن بوكر لا يعيش في بلدة اسمها ويسكي، وإن كان يفعل ماذا سيحدث عندها؟ ماذا لو كان مع امرأة أخرى؟ ماذا ستقول له على أية حال، إلى جانب «أكرهك بسبب ما فعلت» أو «أرجوك عد إلي»؟ ربما يمكنها أن تجد طريقة لإيلامه، إيلامه فعلًا. كانت أفكارها المشوشة تتجمع حول حاجة واحدة؛ حاجة عنيدة لمواجهته بغض النظر عن النتيجة. بعد أن أزعجتها «ماذا لو» وضايقتها إلى جانب صوت نول إيفلين قررت أن تعرج إلى الخارج، ففتحت الباب ونادت «رين، رين».

كانت الفتاة مستلقية على العشب تراقب قافلة من النمل تمضي لشؤونها المتحضرة.

«ماذا هناك؟» رفعت رين نظرها

«هل تريدين الذهاب في نزهة؟»

«لمَ؟» بنبرة أفصحت عن كون بالنمل أكثر متعة من صحبة برايد.

«لا أعلم» قالت برايد.

بدا أن هذا الجواب قد سرها، فقفزت مبتسمة وهي تنظف سروالها القصير «حسن، إن كنت تريدين»

كان الهدوء بينهما سلسًا في البداية لأن كلًا منهما بدت متعمقة في أفكارها، برايد تعرج ورين تقفز أو تمشي بجانب حد الشجيرات والعشب، وبعد سير نصف ميل على الطريق كسر الصمت صوت رين المبحوح.

«لقد سرقاني»

«من؟ تقصدين ستيف وإيفلين؟» توقفت برايد وراقبت رين وهي تحك ربلة ساقها «قالا إنهما وجداك جالسة تحت المطر».

«نعم»

«إذن لمَ تقولين سرقا؟»

«لأنني لم أطلب منهما أن يأخذاني ولم يسألاني إن كنت أود الذهاب».

«لماذا فعلت إذن؟»

«كنت مبتلة وأتجمد أيضًا. أعطتني إيفلين بطانية وعلبة زبيب لآكلها».

«هل أنت حزينة لأنهما أخذاك؟» لا أظن ذلك- فكرت برايد- وإلا كنت ستهربين.

«أوه، لا. مطلقًا. إنه المكان الأفضل ثم إنه ليس لدي مكان أذهب إليه». تثاءبت رين وحكت أنفها.

«تعنين أنك لا تملكين بيتًا؟»

«كنت، لكن أمي تعيش هناك».

«لذلك هربت».

«لا لم أفعل، لقد ألقت بي خارجًا قائلة: اخرجي من هنا بحق الجحيم، ففعلت».

«لماذا؟ لماذا فعلت ذلك؟» لمَ يفعل أي يكن هذا بطفل؟ تساءلت برايد. حتى سويتنس التي لم تحتمل النظر إليها أو لمسها لسنوات لم تلق

بها خارجًا.

«لأني عضضته».

«عضضت من؟»«رجل ما، يأتي بانتظام. واحد من الذي كانت تسمح لهم أن يفعلوها بي. انظري، توت العليق!» كانت رين تبحث بين الشجيرات على جانب الطريق.

«انتظري لحظة» قالت برايد «ماذا يفعلون؟»

«لقد حشر شيئه الذي يبول منه في فمي فعضضته، فاعتذرتْ له وأعادت له العشرين دولارًا وجعلتني أقف خارجًا». كانت ثمار التوت مُرة لوم يكن التوت البري الحلو كما توقعت. «لم تسمح لي بالدخول وواصلت الطرق على الباب. فتحت الباب مرة واحدة ورمت لي سترتي». بصقت رين آخر قضمة من التوت على التراب.

حين تخيلت برايد المشهد اضطربت معدتها. كيف يمكن لأي كان أن يفعل هذا بطفل، أي طفل، وبطفله؟ «إن رأيت أمك ثانية ماذا ستقولين لها؟» ابتسمت رين «لا شيء، سأقطع رأسها».

«أوه رين، إنك لا تعنين ذلك».

«بلى، كنت أفكر في ذلك كثيرًا، كيف سيبدو الأمر؟ عيناها وفمها والدم ينفجر من عنقها، كان مجرد التفكير به يمنحني شعورًا جيدًا».

كان هناك سلسلة من الأحجار موازية للطريق. أخذت برايد يد رين وقادتها بلطف نحو الحجر وجلستا. لم تر أي منهما أنثى الظبي وصغيرها يقفان بين الأشجار على الجانب الآخر من الطريق. كانت أنثى الظبي التي تراقب هذا الزوج من البشر ساكنة كالشجرة التي

وقفت قربها وكان صغيرها ملتصق بخاصرتها.

«أخبريني» قالت برايد «أخبريني»

هربت الأم وطفلها عند سماع صوت برايد

«هيا يا رين» وضعت برايد يدها على ركبة رين.

«أخبريني»

حين فعلت، كانت عيناها الزمرديتان تتسعان بتوقد أحيانًا وأخرى تضيقان لتصبحا بلون الزيتون الداكن حين كانت تصف الذكاء والذاكرة القوية والشجاعة التي احتاجتها لحياة الشارع. عليك أن تعرف مكان المراحيض العامة، قالت، وكيف تتحاشى رعاية الأطفال وكيف تهرب من الثملين ومتعاطي المخدرات. لكن الأهم كان معرفة أن المكان الذي تنام فيه آمن. استغرق ذلك وقتًا وكان عليها أن تتعلم من هم الأشخاص الذين قد يعطونها المال وفي مقابل أي شيء، وأن تتذكر الأبواب الخلفية للمطاعم أو مخازن الطعام التي يعمل فيها خدم لطيفون وكرماء. كانت المعضلة الكبرى في العثور على الطعام وتخزينه لوقت لاحق، وكانت تتعمد ألا تقيم الصداقات مع أي أحد كبارًا أو صغارًا، عقلاء أو مجانين متجولين. يمكن لأي أحد أن يبلغ عنك أو يؤذيك. كانت البغايا الألطف معها وهن اللاتي حذرنها من مخاطر مهنتهن؛ الرجال الذين لا يدفعون، رجال الشرطة الذين يضاجعونهن قبل اعتقالهن والرجال الذين يؤذونهن من أجل المتعة. قالت رين إنها لم تحتج إلى تذكير لأنها نزفت ذات مرة عندما آذاها رجل ما بشدة وأن أمها صفعته وصرخت «اخرج!» ثم غسلتها بمسحوق أصفر. اعترفت رين أن الرجال يخيفونها ويجعلونها تشعر بالغثيان. كانت تنتظر على

عتبات شاحنة لجيش الخلاص عندما بدأت تمطر، فقد تناولها سيدة من الشاحنة معطفًا وحذاء هذه المرة كما كانت تقدم لها الطعام في مرات أخرى. وعندها جاء ستيف وإيفلين، وحين لمسها خطر لها الرجال الذين كانوا يأتون إلى منزل أمها لذا كان عليها أن تجري وتفقد سيدة الطعام وتختبئ.

كانت رين تقهقه أحيانًا حين تصف حياتها المشردة مستمتعة بذكائها ومحاولات هروبها، بينما كانت برايد تقاوم البكاء ليس على أحد سوى نفسها. شعرت، وهي تصغي إلى هذه الفتاة القوية التي لم تضع وقتًا في الشفقة على نفسها، بصداقة كانت خلوًا من الحسد على نحو مدهش، مثل حميمية فتيات المدارس.

رين

لقد رحلت، سيدتي السوداء. في تلك اللحظة التي رأيتها فيها عالقة في السيارة أخافتني عيناها في البداية، كان لسيلكي هرتي عينان كتلك، ولم يمض وقت طويل حتى بدأت أحبها كثيرًا، إنها جميلة جدًا. كنت أحيانًا أنظر إليها فقط وهي نائمة. عادت سيارتها اليوم بباب رديء بلون آخر، وقبل أن تغادر أعطتني فرشاة حلاقة. كان ستيف ملتحيًا ولا يحتاجها فاستخدمتها لتمشيط فراء هرتي. شعرت بالأسى لرحيلها، ولا أعرف إلى من أتحدث. إيفلين طيبة جدًا معي وكذلك ستيف لكنهما يعبسان أو يشيحان بوجهيهما إن تحدثت عن الحياة في منزل أمي، أو إن بدأت أحكي لهما عن ذكائي حين طردتني. لم أعد أرغب بقتلهما على أية حال كما كان الأمر في بداية مجيئي هنا، لكن حينها كنت أرغب بقتل الجميع إلى أن جلبا لي الهرة، لقد صارت قطة الآن وأخبرها بكل شيء. كانت سيدتي السوداء تصغي إلي وأنا أتحدث عن حياتي. لم يكن ستيف ليسمح لي بالحديث عن ذلك ولا إيفلين. إنهما يظنانني أستطيع القراءة لكني لا أستطيع. حسن، ربما القليل؛ كاللافتات وما شابه. كانت إيفلين تحاول تعليمي، هي تسميه تعليمًا منزليًا وأنا أدعوه هراء منزليًا وغباء منزليًا. نحن عائلة مزيفة، صالحة لكنها مزيفة. كانت إيفلين أمًا بديلة صالحة لكني أفضل أن يكون لي أخت مثل السيدة السوداء. ليس لي

أب، أعني أنني لا أعرفه لأنه لا يعيش في منزل أمي، لكن ستيف يكون دائمًا هنا ما لم يكن ينجز عملًا في مكان ما. كانت سيدتي السوداء لطيفة لكنها قوية أيضًا. حين انطلقنا عائدتين إلى البيت بعد أن أخبرتها بكل شيء عن حياتي قبل إيفلين وستيف، مرت بنا شاحنة مزدحمة يقودها أولاد كبار، وصاح أحدهم: «هيه رين، من هي أمك؟» لم تدر سيدتي السوداء وجهها لكني أخرجت له لساني ووضعت إبهامي على أنفي ساخرة منه. كان أحدهم ريجيز صبي أعرفه لأنه يأتي إلى منزلنا أحيانًا مع أبيه ليجلبوا لنا حطبًا أو سلالًا من الذرة. انعطف السائق، وهو ولد يكبرهم، بالشاحنة بحيث يستطيعون اللحاق بنا، وسدد ريجيز بندقية صيد مثل بندقية ستيف باتجاهنا، رأته سيدتي السوداء ووضعت ذراعها أمام وجهي، فأصابت الطلقة يدها وذراعها، فسقطت كلتانا أرضًا وهي فوقي. رأيت ريجيز يخفض رأسه عندما أدير محرك الشاحنة وانطلقت سريعًا. ماذا كان باستطاعتي أن أفعل سوى مساعدتها على النهوض والإمساك بذراعها النازفة حين أسرعنا إلى منزلنا بقدر ما سمح لها كاحلها. أخرج ستيف الطلقات الصغيرة من يدها وذراعها، وقال إنه سيذهب لتحذير والد ريجيز. غسلت إيفلين الدم عن بشرة سيدتي السوداء وصبت اليود على اليد كلها، رأيت تعبير الألم على وجه سيدتي السوداء لكنها لم تبكِ. كان قلبي يخفق بسرعة لأن أحدًا لم يفعل ذلك من قبل، أعني أن ستيف وإيفلين اعتنيا بي وكل شيء لكن لم يعرض أحد نفسه للخطر لإنقاذي، إنقاذ حياتي، غير أن هذا ما فعلته سيدتي السوداء بلا تردد.

لقد رحلت الآن، لكن من يدري قد أراها ثانية يومًا ما.

أفتقد سيدتي السوداء.

الجزء الثالث

لطخ الدم ظاهر كفه وأصابعه أخذت تتورم. لم يعد الغريب الذي كان يضربه يتحرك أو يئن، لكنه عرف أنه من الأفضل أن يبتعد سريعًا قبل أن يظنه طالب ما أو حارس أمن في المدرسة أنه خارج على القانون بدلًا من ذلك الرجل المستلقي على العشب. لقد ترك سحاب جينز الرجل المضروب مفتوحًا وقضيبه متدليًا إلى الخارج كما كان تمامًا عندما رآه أول مرة عند طرف ملعب المدرسة. كان هناك قليل من أطفال المدرسة قرب المزلقة وواحد فقط على الأرجوحة، وغالبًا لم يلاحظ أي منهم الرجل الذي يلعق شفتيه ويلوح بقضيبه الأبيض الصغير باتجاههم. كان لعق الشفتين ما لفت انتباهه؛ اللسان الذي يمسد الشفة العليا وابتلاع الريق قبل أن يعيد الكرة. كان من الواضح أن رؤية الأطفال ممتعة للرجل بقدر لمسهم لأنه من الواضح أيضًا أنهم في عقله المنحرف كانوا ينادونه وأنه كان يجيب أفخاذهم الممتلئة ومؤخراتهم الصغيرة المشدودة ملوحين بثيابهم الداخلية أو سراويلهم القصيرة حين كانوا يصعدون إلى المزلقة أو حين كانت تنتفخ بالهواء على الأرجوحة.

كانت قبضة بوكر في فم الرجل قبل أن يفكر بها، فلوث سترته رذاذ خفيف من الدم، وعندما فقد الرجل الوعي حمل بوكر حقيبة كتبه

ومضى، ليس بسرعة شديدة، لكن بسرعة كافية ليعبر الشارع ويقلب سترته ويصل إلى المحاضرة في الوقت المناسب. لم يتمكن من ذلك، لكن كان هناك عدد من الطلاب يتسللون إلى قاعة المحاضرات عندما وصل، جلس الواصلون المتأخرون في مقاعد الصفوف الأخيرة وضعوا حقائب الظهر أو المحافظ أو الحواسيب المحمولة على طاولاتهم، أخرج واحد منهم فقط دفتر ملاحظات. كان بوكر يفضل الكتابة بالقلم الرصاص أيضًا على الورق، لكن أصابعه المتورمة جعلت الكتابة صعبة، لذا استمع قليلًا وشرد قليلًا وغطى فمه بيده ليخفي تثاؤبه.

كان الأستاذ يتحدث ويتحدث عن أخطاء آدم سميث كما يفعل في كل محاضرة، وكما لو أن تاريخ الاقتصاد فيه باحث واحد فقط جدير بالنقد، ماذا عن ميلتون فريدمان أو ذلك الحرباء كارل ماركس؟ كان اهتمام بوكر بإله المال حديثًا. قبل أربع سنوات، قبل أن يتخرج، أخذ دروسًا في مواد مختلفة؛ علم النفس والعلوم السياسية والعلوم الإنسانية، كما أخذ دروسًا متعددة في الدراسات الأفريقية الأمريكية حيث كان الأساتذة رائعين في الشرح لكنهم لم يتمكنوا من إجابة أي سؤال يبدأ بـ «لماذا؟» بشكل يرضيه. كان يتساءل عن الإجابات الحقيقية حول العبودية والقتل دون محاكمة والسخرة والمشاركة بالزراعة والعنصرية وحقبة إعادة الإعمار و قوانين جيم كرو(*) والعمل بالإجبار والهجرة والحقوق المدنية والحركات الثورية للسود وكلها كانت حول المال. المال يُحبس والمال يسرق، المال سلطة كالحرب. أين هي المحاضرة حول كيف نقلت العبودية وحدها البلاد كاملة من الحقبة الزراعية إلى الصناعية في عقدين؟ كراهية البيض وعنفهم كان الوقود الذي أبقى

* قوانين الفصل العنصري الاجتماعي.

محركات الفوائد تدور، لذا قرر بعد تخرجه أن يدرس الاقتصاد، تاريخه ونظرياته، ليعرف كيف كان المال سبب كل الظلم في العالم وخلق كل الإمبراطوريات والشعوب والمستعمرات باستغلال اسم الرب وأعدائه لجني الثروات ثم إخفائها. كان عادة يقارن بين ملك اليهود المضروب المعدم نصف العاري يصرخ على صليب بسبب الخيانة وبين الحبر الأعظم الذي يرتدي ثيابًا فاخرة ويتزين بالجواهر ويهمس بالمواعظ فوق قنطرة الفاتيكان. **الصليب والقنطرة تأليف بوكر ستاربيرن**، هذا سيكون عنوان كتابه.

سمح لأفكاره، غير مكترث بالمحاضرة، أن تنزلق نحو الرجل المستلقي مكشوفًا قرب الملعب، أصلع، عادي الهيئة، وربما كان رجلًا لطيفًا؛ دائمًا يكونون كذلك. «ألطف رجل في العالم» هذا ما يقوله الجيران دومًا. «لا يمكنه إيذاء ذبابة» من أين جاؤوا بهذه العبارة المبتذلة؟ لماذا لا يؤذي ذبابة؟ هل تعني أنه كان رقيقًا جدًا بحيث لا يمكنه قتل حشرة ناقلة للأمراض لكن يمكنه أن يحطم حياة طفل بكل سرور؟

نشأ بوكر في عائلة كبيرة متماسكة بلا تلفاز، وكطالب جامعي عاش محاطًا بعالم التلفاز/ الإنترنت حيث بدا له كل من مناهج الاتصال الجماهيري وجوهره مثقلين بالتسلية لكنهما فارغان غالبًا من المعرفة أو البصيرة. كانت قنوات أخبار الطقس هي مصادر المعلومات الوحيدة غير أنها كانت خاطئة ومجنونة معظم الوقت، وألعاب الفيديو كانت ساحرة بلا هدف. ولكونه نشأ في عائلة تقرأ الكتب وتلجأ إلى الصحف والمذياع فقط من أجل الأخبار اليومية، وأسطوانات الفينيل من أجل التسلية، كان عليه أن يقلد حماسة رفاقه لأصوات الألعاب القادمة من كل غرفة في السكن والردهة وحانة الطلاب، كان يعرف أنه بعيد بعيد

جدًا عن هذه الحلقة، بدائي عاجز عن الإحساس بإثارة عالم التقنية، وهذا أحرجه كطالب في السنة الأولى.

كان قد نشأ من خلال الأحاديث الحية والنصوص على الورق. صباح كل سبت كان أول ما يفعله والداه قبل تناول الإفطار أن يجمعا أطفالهما ويطلبان منهم الإجابة على سؤالين يطرحان على كل واحد منهم: ١.ما الذي وجدت أنه حقيقي (وكيف تعرف ذلك)؟ ٢. ما المشكلة التي تواجهك؟ وقد تراوحت الإجابات على السؤال الأول بمرور السنوات من «الديدان لا يمكنها الطيران» و «الثلج يحرق» و»هناك ثلاث مقاطعات فقط في هذه الولاية» إلى «البيدق أكثر قوة من الملكة». أما المواضيع المتعلقة بالسؤال الثاني فقد تكون «صفعتني فتاة» أو «عادلي حب الشباب» أو «الجبر» أو «تصريف الأفعال في اللاتينية». كانت الأسئلة حول المشاكل الشخصية تحفز كل من يجلس إلى الطاولة على اقتراح الحلول، وبعد حلها أو تأجيلها، يذهب الأطفال للاستحمام وارتداء الثياب، يساعد الكبار منهم الصغار في ذلك. كان بوكر يحب اجتماعات السبت الصباحية التي يتلوها مفاجأة نهاية الأسبوع، ولائم أمه الكبيرة على الإفطار، ولائم حقيقية. الكعك الساخن؛ ضئيل وهش أبيض كالثلج وساخن حارق للسان؛ والبيض المخفوق الدسم بلون الزعفران الشاحب، وفطائر السجق الحارة، وشرائح الطماطم ومربى الفراولة وعصير البرتقال الطازج والحليب البارد في عبوات زجاجية. كانت تحتفظ ببعض الأطعمة خصيصًا لولائم إجازات نهاية الأسبوع لأنهم كانوا طوال أيام الأسبوع الباقية يتناولون الطعام باقتصاد: الشوفان والفاكهة الموسمية والأرز والحبوب الجافة وأي خضار ورقية كانت متوفرة مثل الكيل والسبانخ والملفوف الأخضر

والخردل واللفت. كانت قائمة الطعام في إفطار نهاية الأسبوع فاخرة عمدًا لأنه يتلوها أيام من الاقتصاد.

أوقفت العائلة الاجتماعات والإفطار الفاخر أثناء الأشهر الطويلة التي اختفى فيها آدم ولم يعلم أحد مكانه، خيم الهدوء على المنزل خلال هذه الأشهر مثل قنبلة موقوتة قد تنفجر في شجارات سخيفة ولئيمة بلا معنى.

«أمي إنه ينظر إليّ!»

«توقف عن النظر إليها»

«إنه ينظر ثانية!»

«توقف عن النظر ثانية»

«أمي!»

عندما استجاب رجال الشرطة لالتماسهم للمساعدة في البحث عن آدم، فتشوا منزل آل ستاربيرن مباشرة؛ كما لو أن الوالدين القلقين قد يكونان مخطئين، وتحققوا إن لم يكن للأب سجل إجرامي، ولم يكن لديه. قالوا: «سنعود إليكم»، ثم نسوا الأمر. اختفى ولد أسود صغير آخر، وماذا إذن؟

رفض والد بوكر أن يشغل أي واحدة من أسطواناته المفضلة من موسيقى الرجتيم والجاز القديم، التي استطاع بوكر التنازل عنها لكن ليس ساتشمو (لويس آرمسترونغ)، لقد كان فقدان الأخ الذي كسر قلبه- أمر لكن عالمًا دون ترومبيت لويس آرمسترونغ كان شيئًا آخر قد سحقه.

ثم عندما بدأت أشجار الحديقة بالتأنق في بداية الربيع، عُثر على آدم في مجرور صرف.

ذهب بوكر برفقة والده للتعرف على بقايا الجثة، كانت قذرة قرضتها الجرذان وكانت بمحجر عين واحدة مفتوحة. عادت الديدان المتخمة والمفعمة بالسعادة إلى بيوتها مخلفة عظامًا نظيفة تحت شرائط من قميصه الأصفر الملوث بالوحل. لم تكن الجثة ترتدي حذاءً أو سروالًا. لم تستطع والدة بوكر الذهاب إلى هناك، فقد رفضت أن تحفر في ذهنها أي شيء عدا عن تصورها لجمال بكرها اليانع الصادم.

بدت الجنازة بتابوت مغلق لبوكر رخيصة ووحيدة رغم بلاغة الواعظ الفائقة وحشود الجيران الحاضرين والأطباق تلو الأخرى المعدّة بعناية التي وصلت مطبخهم. لقد جعله الإسراف يشعر بالوحدة أكثر، فقد كان كما لو أن أخاه -الذي يكبره لكنه كتوءمه- يدفن ثانية ويختنق تحت الأغاني والمواعظ والدموع والحشود والأزهار. أراد أن يعيد توجيه ذلك النحيب، ويجعله منفردًا وخاصًا والأكثر من ذلك أن يجعله نحيبه وحده. كان آدم أخاه الذي يعبده، يكبره بعامين وحلو مثل قصب السكر، بديل بلا عيوب للأخ الذي تكور معه في الرحم، الأخ الذي أخبروه أنه لم يحظ بنفَس واحد. كان بوكر في الثالثة عندما أخبروه أن له توءمًا مات عند الولادة، لكنه كان يعرف ذلك دومًا بطريقة ما، شعر بالطيف الدافئ الذي يسير إلى جانبه، أو ينتظره على عتبات الرواق بينما يلعب في الفناء، طيف يقاسم بوكر اللحاف الذي ينام تحته. وحينما كبر كان شكل ذلك الطيف يبهت ويحول نفسه إلى نوع من الصحبة الداخلية التي يثق بردود فعلها وأحاسيسها. حين دخل الصف الأول وسار إلى المدرسة كل يوم مع آدم اكتمل لديه البديل، ولذا بعد مقتل آدم

لم يكن لبوكر رفاق، كان كلاهما ميت.

كان آدم في المرة الأخيرة التي رآه فيها بوكر يتزلج على الرصيف عند الغسق، كان قميصه الأصفر يشع تحت أشجار الدردار الشمالية. لقد كانت بداية سبتمبر ولم يكن أي شيء في أي مكان قد بدأ الاحتضار. كانت أوراق القيقب تتحرك كما لو أن خضرتها خالدة، وكانت أشجار الدردار تواصل التسلق نحو السماء الصافية، وأخذت الشمس تتحول إلى الحياة بشراسة في عملية التوجيه. كان آدم يطفو على الرصيف بين الشجيرات والأشجار العالية، نقطة من الذهب تتحرك في نفق من الظل نحو فم الشمس الحية.

كان آدم أكثر من مجرد أخ لبوكر، وأكثر من مجرد «أ» لأبوين سميا أبناءهما أبجديًا. كان الوحيد الذي يعرف بمَ يفكر بوكر وبم يشعر، والذي كان مزاحه صاخبًا ومثقفًا معًا، لكنه لم يكن قاسيًا أبدًا، وكان الأكثر ذكاء وأحب كل واحد من إخوته وبوكر بشكل خاص.

وضع بوكر وردة صفراء واحدة على غطاء التابوت وأخرى لاحقًا على القبر، لأنه عجز عن نسيان ذلك البريق الأصفر الأخير الذي كان يعبر النفق في الشارع. قدم أفراد العائلة من مسافات بعيدة ليدفنوا الجثة ويقدموا العزاء لآل ستاربيرن، ومن بينهم كان السيد درو، جده لأمه. لقد كان ناجحًا، الجد الذي يعلن العداء بصراحة لكل من لم يكن غنيًا بقدره، الشخص الذي حتى ابنته لا تدعوه «أبي» أو «بابا» بل «السيد درو». ورغم ذلك تصرف العجوز الذي جعل من ماله سيدًا عديم الرحمة- بما بقي لديه من أخلاق ولم يظهر ما شعر به من احتقار لهذه العائلة الفقيرة.

بعد الجنازة عاد المنزل إلى ما كان عليه في السابق بتردد، والأصوات

المشجعة للويس وإيلا وسيدني بيكيت وجيلي رول وكنج أوليفر وبانك جونسون تطفو من مشغل الأسطوانات في الخلفية، وعادت الاجتماعات وولائم الإفطار، مع محاولات بوكر وإخوته كارول ودونوفان وإيلي وفافور وجودمان جميعًا للتفكير بإجابات مثيرة للأسئلة المعتادة. ومع الوقت كانت العائلة كلها مبتهجة مثل دمى شارع السمسم آملة أن هذا المرح، إن بذل من أجله جهد كافٍ، سيضفي الحلاوة على الأحياء ويريح الموتى، لكن بوكر رأى أن مزاحهم كان متكلفًا وأن مشاكلهم المفتعلة كانت مضللة ومهينة. أثناء الجنازة ولأيام قليلة تلتها، كانت قريبة زائرة، عمة تدعى كوين، هي الاستثناء مما رآه بوكر تكرارًا غبيًا. لم يكن أحد يتذكر اسمها الأخير لأنه أشيع عنها أنها تزوجت مرارًا- أحد الأزواج كان مكسيكيًا، ثم رجلين أبيضين، وأربع رجال سود، وواحد آسيوي لكن بترتيب لا يتذكره أحد. كانت بدينة وبشعر أحمر ناري، وقد فاجأت العائلة الحزينة بالسفر كل تلك المسافة من كاليفورنيا لحضور جنازة آدم. كانت الوحيدة التي شعرت بغضب ابن أخيها الممتزج بالحزن وأخذته جانبًا.

«لا تدعه يرحل» قالت «ليس قبل أن يكون مستعدًا، وأثناء ذلك تمسك به جيدًا. سيعلمك آدم متى يحين الوقت».

لقد عزّته وقوّته ووافقته على التأنيب الظالم الذي كان يشعر به من عائلته.

حذرًا من أزمة أخرى قد تنبذ الموسيقى المهدئة للروح التي يشغلها والده، والتي اعتمد عليها بوكر لترطيب مشاعره المتشابكة وتقويمها، سأل والده إن كان بإمكانه أن يأخذ دروسًا في عزف الترومبيت، فوافق السيد ستاربيرن وأعطاه نصف أجر المعلم. وقام لجيرانه بمهام روتينية

وجمع ما يكفي ليفوت اجتماعات السبت مقابل دروس الترومبيت، وهذا ما خفف من تحامله الناشئ على إخوته. كيف يمكنهم التظاهر بأن الأمر انتهى؟ كيف يمكنهم النسيان والمواصلة؟ من كانت القاتل وأين هو؟

كان معلم الترومبيت يثمل قليلًا في الصباح الباكر، لكنه كان عازفًا بارعًا ومعلمًا ماهرًا.

«لديك رئتان وأصابع ثم الشفة. عندما تجمعها معًا يمكنك نسيانها وجعل الموسيقى تنساب فقط».

وهذا ما فعله بالمثابرة.

بعد ست سنوات حين صار بوكر في الرابعة عشر من عمره وعازف ترومبيت بارع نوعًا ما، قبض على الرجل الألطف في العالم وحوكم وأدين بتهمة ذبح ستة أولاد للحصول على الإثارة الجنسية، وكان اسم كل منهم، ومن بينهم آدم، موشوم على كتفي الرجل الألطف في العالم. بويز، ليني، آدم، ماثيو، كيفن، رونالد. من الواضح أنه قاتل مناصر للمساواة فقد جسد ضحاياه أغنية نحن العالم(*). قال رسام الوشم أنه كان يظنها أسماء أولاد زبونه لا أبناء أشخاص آخرين.

كان الرجل الألطف في العالم ميكانيكيًا متقاعدًا هادئًا يقوم بإصلاحات منزلية، وكان بارعًا على وجه التحديد في أعطال الثلاجات القديمة- من نوع فيلكوس وإي جي التي صنعت في الخمسينيات لتدوم- ومواقد وأفران الغاز القديمة.

---

* **أغنية خيرية منفردة كتبها مايكل جاكسون وليونيل ريتشي وغناها عدد من نجوم الغناء العالميين لجمع الأموال من أجل مجاعة أثيوبيا.**

«القذارة» كان يقول دومًا «تتعطل معظم الآلات لأنها لا تنظف أبدًا». كل من استأجره تذكر هذه النصيحة، وتذكر آخرون سمة أخرى وهي ابتسامته، كم كانت ودودة وجذابة. عدا عن ذلك فقد كان دقيقًا وبارعًا و.. حسن، لطيفًا. كان الأمر الآخر الذي تذكره الناس فيه أنه كان يتنقل دومًا مصطحبًا كلبًا صغيرًا جميلًا في شاحنته، كلبًا من نوع ترير يسميه «بوي». احتفظت الشرطة بالتفاصيل التي حصلوا عليها، لكن أسر الأولاد المقتولين لا يمكن إيقافهم أو إخراسهم، ولم تكن الكوابيس التي رأوها عما حدث لأبنائهم أكثر رعبًا من الحقيقة. ست سنوات من الحزن والأسئلة دون إجابات التفت حول ذكريات الأوقات التي قضوها في المشرحة ثائرين أو منتحبين أو بلا تعابير، أو على ظهورهم في إغماءات عاجزة.

لم يكن قد بقي الكثير من الآثار على جسد آدم حين عثر عليه، لكن التفاصيل في حوادث الخطف الأحدث كانت قوطية. من الواضح أن الأطفال كانوا مكبلين أثناء اغتصابهم وتعذيبهم بالإضافة إلى بتر الأعضاء. لا بد أن الرجل الألطف في العالم قد استخدم كلبه الأبيض الصغير طعمًا. تذكرت الشاهدة المركزية، وهي أرملة مسنة، أنها رأت طفلًا في المقعد الجانبي من شاحنته يضحك ويقرب كلبًا صغيرًا من وجهه. وعندما رأت ملصق إعلان عن ولد مفقود لاحقًا على نوافذ المخزن وعلى أعمدة الهاتف والأشجار رأت أن الولد يشبه الولد الضاحك، فاتصلت بالشرطة. عرفوا الشاحنة بالطبع، كانت تعلن وعدها: لديك مشكلة؟ لدينا الحل! و.م، ف، همبلوت، تصليح منزلي. عند تفتيش منزل السيد هبمولت عثر في القبو على مرتبة قذرة ملطخة بدم جاف، بالإضافة إلى علبة حلوى مزينة بإتقان وضعت فيها قطع

ملفوفة من اللحم الجاف، التي تبين دون الحاجة إلى فحص دقيق أنها أعضاء ذكورية صغيرة.

ارتفعت المطالبات والنداءات العامة من أجل القصاص لأن العدل كانت منحرفًا ومسلوبًا. بدا أن اللافتات والحشود أمام المحكمة والمطبوعات كلها لا يمكن تهدئتها بأي شيء أقل من قطع رأس الجاني. انضم بوكر إلى الحشود لكنه لم يكن راضيًا تمامًا بحل سطحي كهذا، فما أراده لم يكن موت الرجل، بل أراد حياته، وأمضى وقته في اختلاق سيناريوهات تتضمن الألم واليأس دون نهاية. أليست هناك قبيلة في أفريقيا تربط الجثة على ظهر قاتلها؟ هذا هو العدل حتمًا، أن يحمل الجثة المتعفنة كحمل مادي بالإضافة إلى الخزي واللعن العام. هزه الغضب واللغط العام حول إدانة الرجل الألطف في العالم بقدر ما هزه موت آدم تقريبًا. لم تكن المحاكمة نفسها طويلة لكن الإجراءات التمهيدية بدت لبوكر أبدية. طوال أيام من عناوين الصحف الرئيسة وأحاديث الإذاعة وثرثرة الجيران حاول أن يجد طريقة لتجميد مشاعره وجعلها فردية ليفصلها عن حزن الأسر الأخرى وغضبهم المحموم. رأى أن فاجعة آدم لم تكن حدثًا عامًا ليفرد لها سطر واحد في قائمة الصحيفة لأسماء الضحايا الستة، وخطر له بعد عامين حلًا مرضيًا ومهدئًا بأن يستعيد اللفتة التي قام بها في جنازة آدم، فحصل على وشم وردة صغيرة على كتفه الأيسر، هل كان هذا الكرسي نفسه الذي جلس عليه الجاني، والإبرة نفسها التي استخدمت على بشرته البيضاء بلون المعجون؟ لم يسأل. لم يكن رسام الوشم يملك اللون الأصفر المتوهج نفسه في ذكرى بوكر، فاتفقا على اللون الأحمر المائل إلى البرتقالي.

منحه قبوله في الجامعة الراحة إلى جانب الإلهاء، كما أنه سرعان

ما أصبح مفتونًا بالحياة الجامعية، ليس بالمحاضرات ولا الأساتذة، بل بزملائه المرحين الذين يعرفون كل شيء، فتنة لم تتضاءل طوال سنتين. كل ما فعله في السنة الأولى وخلال السنة الثانية كان تفاعلًا؛ كان يستهزئ ويضحك وينبذ وينتقد ويحقّر، بمفهوم شاب عن التفكير النقدي، كان هو وزملاؤه في السكن يصنفون الفتيات حسب مجلات الرجال والأفلام الإباحية، ويصنفون بعضهم بعضًا وفقًا لشخصيات في أفلام الحركة التي شاهدوها. كان للأذكياء شعبية في الصفوف لكن العباقرة ينبذون. في سنته الثالثة تحول تهكمه إلى إحباط، وبدأت آراء زملائه تضايقه وتشعره بالضجر معًا، ليس فقط لأنها كانت متوقعة بل لأنها كانت توقف البحث الجاد. وعلى عكس جهده في إتقان عزف «وايلد كات بلوز» على الترومبيت الخاص به لم يكن التفكير الإبداعي مطلوبًا في مجتمع الطلاب ولم يخترق أحد الضباب المبارك لظلم الشباب. ثورة الطلاب حول الحرب على العراق التي عكرت مرة صفو الحرم الجامعي قد هدأت، وقد ارتفع علم السخرية الآن وأصبحت القهقهة قسمًا لها؛ وصار التلاعب الوديع بالأساتذة هو العادة. في شارع ديكاتور أعاد بوكر طرح الأسئلة التي طرحها والداه خلال اجتماعات السبت: ١. ما الذي وجدت أنه حقيقي (وكيف تعرف ذلك)؟ ٢. ما المشكلة التي تواجهك؟

١. لا شيء حتى الآن. ٢. اليأس.

لذا، على أمل أن يتعلم شيئًا ذا قيمة وربما ليعثر على مكان مهدئ لليأس تقدم إلى الدراسات العليا، وهناك ركز على تتبع حركة المال من المقايضة إلى القنابل. كانت تلك بالنسبة له رحلة ذهنية مسيطرة ضبطت غضبه وطوقته وشرحت كل شيء عن العنصرية والفقر والحرب. كان

عالم السياسة ملعونًا، وبدا أن ناشطيه، التقدميين و الرجعيين معًا، كانوا مخطئين وحالمين. لم يكن لدى الثوريين، المسلحين أو السلميين، أي فكرة عما قد يحدث بعد أن «ينتصروا» من سيحكم؟ «الشعب»؟ أرجوك! ما الذي يعنيه هذا؟ كانت النتيجة الأفضل تتجلى بتقديم فكرة جديدة للشعب قد يسعى رجل السياسة إليها، وما تبقى كان مسرحًا يبحث عن جمهور. فسر المال وحده شرور الإنسانية، وقد كان مصممًا على العيش دون الخضوع له. كان يعلم تمامًا الموضوعات والأفكار للكتب والمقالات التي سيكتبها ودوّن ملاحظات حول بحثه. وعدا عن البحوث في تخصصه كان يقرأ الشعر وبعض المجلات، لا روايات سواء أكانت عظيمة أو دون ذلك. كان يحب قصائد محددة لأنها تحاكي الموسيقى، والمجلات لأن المقالات فيها تمزج السياسة بالثقافة. لقد بدأ أثناء دراسته الجامعية بكتابة أشياء أخرى غير الخطوط العريضة لمقالاته المستقبلية، فبدأ يحاول صياغة جمل غير مشذبة في لغة موسيقية عبرت عن تساؤلاته أو نتاج تفكيره، ألقى بمعظمها، واحتفظ بالقليل منها.

وبعد أن تأكد من حصوله على درجة الماجستير أخيرًا، سافر بوكر من أجل العشاء الاحتفالي الذي أعدته أمه، وفكر بسؤال صديقته فيليستي التي يتركها مرة ويعود إليها مرة لمرافقته، ثم قرر ألا يفعل، لم يكن يريد غريبًا ينتقد عائلته، كان ذلك عمله هو.

كان كل شيء سلسًا ومبهجًا تقريبًا في اجتماع العائلة إلى أن صعد إلى الأعلى إلى غرفته القديمة، الغرفة التي تقاسمها مرة مع آدم، لم تكن الغرفة مختلفة قليلًا بل عكس ما كانت عليه سابقًا. سرير مزدوج بدلًا من السريرين المتشابهين له ولآدم، وستائر بيضاء شفافة بدلًا من الحاجبة للنور وبساط رائع تحت مكتب صغير، والأسوأ من ذلك

كله، الخزانة التي كانت يومًا مزدحمة بألعابها المضارب وكرات السلة وألعاب الطاولة، كانت تضم الآن ملابس أخته كارول. لكنه غص بالاستياء عندما وجد أن لوح تزلجه، المطابق لذلك الذي غاب مع آدم قد اختفى. نزل بوكر إلى الطابق السفلي واهنًا من الحزن، وعندما رأى أخته تحول ضعفه الشاحب إلى توءمه المتقد: الغضب، فافتعل شجارًا مع كارول، وردت عليه، وتصاعد شجارهما وأزعج العائلة كلها إلى أن وضع السيد ستاربيرن له حدًا.

«كف عن ذلك يا بوكر! لست وحدك من يتألم، الناس ينوحون بأشكال مختلفة» كان صوت أبيه صلبًا مثل حد سكين.

«نعم، طبعًا» كانت نبرة بوكر عدائية مشبعة بالاحتقار.

«إنك تتصرف كما لو كنت الوحيد الذي أحبه في هذه العائلة. لم يكن هذا ما أراده آدم» قال أبوه.

«أنت لا تعلم ما الذي أراده» قاوم بوكر البكاء بنجاح.

نهض السيد ستاربيرن من الأريكة «حسن، أعرف ما الذي أريده أنا. أريدك أن تتأدب في هذا المنزل أو تغادر».

«أوه، لا» همست السيد ستاربيرن «لا تقل ذلك».

حدق الأب والابن ببعضهما بعضًا وعيونهما مليئة بعداء حربي. ربح السيد ستاربيرن المعركة وغادر بوكر المنزل، مغلقًا الباب بقوة خلفه.

ربما كان من المناسب بعد مغادرة المنزل الوحيد الذي عرفه في حياته أن يسير تحت المطر الذي أجبره على رفع ياقته وخفض رأسه مثل دخيل ممتن لحلول الليل. سار في شارع ديكاتور رافعًا كتفيه ومضيقًا عينيه

بمزاج كمّله المطر العاصف. قبل شجاره مع كارول حاول إقناع والديه بالتفكير بنوع من التذكار لآدم؛ منحة دراسية باسمه مثلًا، أحبت أمه الفكرة لكن أباه عبس ورفضها قطعًا.

قال: «لا يمكننا تبديد المال هكذا ولا يمكننا تبديد الوقت في محاولة جمعه. الناس الذين أحبوا آدم وأعجبوا به ليسوا بحاجة إلى تذكير به».

كان بوكر يشعر بالاستياء مسبقًا ليس من كارول وحدها، بل من إخوته الأصغر أيضًا. بدا الأمر لفافور وجودمان أن بوكر أراد تمثالًا لأخ توفي حين كانا رضيعين. ما رآه بوكر على أنه ولاء للعائلة وجده الآخرون تلاعبًا، كمحاولة للسيطرة عليهم، واستبعاد أبيهم. لقد ظن أنه يستطيع أن يملي على الجميع ما يفعلونه فقط لأن لديه درجتين جامعيتين، وشعروا بالضيق من غروره.

حين زار غرفته وآدم القديمة، تحول خيط الرفض الذي شعر به أثناء اقتراحه التذكار، تحول إلى حبل لأنه رأى الغياب الوحشي ليس لآدم فحسب بل غيابه هو أيضًا. وحين أغلق الباب على عائلته وخطا تحت المطر كان تصرفه متأخرًا.

***

قالت فيليستي «نعم، طبعًا» حين سألها بوكر إن كان يستطيع البقاء في منزلها لفترة، وقد كان ممتنًا لجوابها السريع لأنه لم يكن لديه مكان خاص به بعد أن سلم غرفته في السكن الجامعي. في الحافلة في عودته إلى الجامعة كان يقرأ العدد السابق من مجلة دايدالوس الذي جلبه معه ليصرفه عن التفكير بخيبة أمله من عائلته. لكنها ظهرت على السطح بقوة عندما وصل إلى السكن وبدأ بوضع بقايا حياته الجامعية في

صناديق؛ كتب وأحذية جري وملابس بالية ودفاتر ومجلات، كل شيء عدا آلة الترومبيت المفضلة لديه. عندما توقف عن التمرغ في الشفقة على الذات لكونه يساء فهمه على نحو خبيث، اتصل بصديقته. كانت فيليستي مدرسة بديلة واستمرت علاقتهما لسنتين مبدئيًا لأنه كان هناك كثير من الوقت الذي لم يريا فيه بعضهما بعضًا. كانوا يستدعونها حين تمرض مدرسة دائمة فجأة، ولم تكن منتظمة وكانت غالبًا في مناطق بعيدة. لذا شعر بالراحة حين سألها إن كان يستطيع الانتقال إلى منزلها لفترة لأن كليهما يعلم أن الأمر متعلق بالراحة وليس بالالتزام. كان الفصل صيفًا، ولن يكون لدى فيليسيتي غالبًا استدعاءات لتكون معلمة بديلة لذا يمكنهما الاستمتاع برفقة بعضهما دون مواعيد محددة؛ يذهبان إلى السينما، يتناولان الطعام خارجًا، يجريان خلف الشاحنات، أي شيء يرغبان بفعله.

اصطحب بوكر فيليسيتي ذات مساء إلى بيير ٢، حانة ومطعم قديم وتعزف فيه فرقة جاز صغيرة. فكر بوكر وهو يتناول القريدس والأرز، كما يفعل دومًا، أن الفرقة الرباعية على المنصة الصغيرة كانت تحتاج آلة نفخ. افتراضيًا، كانت كل الموسيقى الشعبية متخمة بالآلات الوترية كالجيتار والباس ومفاتيح البيانو التي يدعمها النقر. وباستثناء كبار العازفين مثل فرقة إي ستريت أو أوركسترا واينتون مارساليس، نادرًا ما كانت الفرق تعزف، جماعيًا أو منفردًا، الساكس أو الكلارنييت أو الترومبون أو الترومبيت، وشعر بالفراغ بحدة، فتوجه في الاستراحة من هذه الأمسية من الكواليس إلى غرفة تبديل صغيرة مترعة بدخان الحشيش وضحك العازفين ليسأل إن كان بإمكانه الانضمام إلى الفرقة أحيانًا. ولأنهم لا يرغبون بتقليص أرباحهم باقتسامها مع عازف آخر،

خاصة أنهم لا يعرفونه فقد صرفوه سريعًا.

«اذهب إلى الجحيم يا رجل»

«من سمح لك بالدخول هنا؟»

فقال متذرعًا: «حسن، يمكنكم على الأقل الاستماع إلي، أنا أعزف الترومبيت ويمكنكم العزف مع البوق».

نظر إليه عازف الجيتار باحتقار لكن عازف الإيقاع قال «اجلبه إلى حفل يوم الجمعة. لن يكون مهمًا إن أفسدت الأمر»

لم يذكر تجربة أدائه المستقبلية لفيليسيتي، فهي ليست مهتمة بعزفه الترومبيت.

فعل بوكر ما اقترح عازف الإيقاع، مجربًا العزف أمامهم في غرفة التبديل مقلدًا عزف لويس آرمسترونغ المنفرد قدر استطاعته. هز عازف الإيقاع رأسه وابتسم عازف البيانو ولم يعترض عازفا الجيتار، ومنذئذ أثناء الصيف انضم بوكر إلى المجموعة التي تسمي نفسها «ذا بيج بويز أون فرايديز» حين كان المكان مكتظًا ولم يلق طالبو الطعام والشراب بالًا للموسيقى.

عندما تفككت فرقة بيج بويز في سبتمبر؛ عازف الإيقاع انتقل بعيدًا وعازف البيانو انضم إلى فرقة أفضل وأكبر، بدأ بوكر وعازفا الجيتار بالعزف في الشوارع المكتظة بالمخضرمين المشردين الذين يحملون غضبًا باردًا في عيونهم، لم يخفف غضبهم حصولهم على المزيد من العروض الكريمة بكونهم محاطين بالموسيقى. كان الموسم الأحلى في حياة بوكر لكنه لم يدم. فقد أنهكت العلاقة مع فيليسيتي ولم يعد إصلاحها ممكنًا، لقد استمتعا بكونهما عاشقين يسكنان معًا طوال الصيف قبل أن يبدأ

أحدهما بمضايقة الآخر بعادات لم يكترثا لها سابقًا. اشتكت فيليسيتي من تمارين التروبيت الصاخبة ورفضه الاحتفال كل ليلة مع أصدقائها. وهو كره تدخينها للسجائر وخياراتها في تناول الطعام خارجًا والموسيقى والنبيذ، بالإضافة على إصرارها على الزيارات المستمرة من كل أفراد أسرتها، لقد كانت فضولية ومتطفلة دومًا على حياته، والأدهى من ذلك أنه وجدها عنيدة بشكل لا يحتمل. في الحقيقة وجدت فيليسيتي أنه ممل ومزعج بقدر ما يراها كذلك، كانت تظن أنها ستفقد عقلها لو اضطرت للاستماع مرة واحدة إلى دونالد بايرد أو فريدي هابارد أو بلو ميتشل أو أي من عازفيه المفضلين. بدأت تعتبره فاشلًا كارهًا للنساء. ومع ذلك كان يمكنهما البقاء معًا بغض النظر عن العداوة المشتركة التي كانت تنمو بينهما مثل العفن، لو لم يحدث أمر واحد: اعتقال بوكر والليلة التي أمضاها في النظارة.

كان قد مر بزوجين أوقفا سيارتهما في ساحة خالية، وكانا يتبادلان الأدوار في تدخين غليون من المخدرات ، لم يكن قد اهتم بالأمر إلى أن لمح طفلًا، في الثانية من عمره تقريبًا، يصرخ ويبكي وهو يقف في المقعد الخلفي من سيارة المخدرّين من نوع تويوتا. مشى باتجاه السيارة وفتح الباب وجذب الرجل خارجًا وحطم وجهه وركل الغليون الذي سقط على الأرض. ثم ترجلت المرأة وجرت لتساعد شريكها. كان عراك الثلاثة مضحكًا أكثر من كونه مميتًا، لكن كان طويلًا وصاخبًا بما يكفي لجذب انتباه المتسوقين أولًا ثم الشرطة. ألقي القبض على الثلاثة والفتاة الصغيرة التي كانت تصرخ أعطيت لرعاية الأطفال.

كان على فيليسيتي أن تدفع الغرامة. كان القاضي رحيمًا ببوكر لأن الوالدين المخدرين أثارا اشمئزازه بقدر ما فعلا لبوكر، فاستدعى

الزوجين وحرر محضر إزعاج الهدوء لبوكر. أغضبت الحادثة كلها فيليسيتي التي تساءلت بصوت عال لماذا يتدخل بأمور لا تعنيه.

«من تظن نفسك؟ باتمان؟»

تلمس بوكر ضرسه الأيمن ليرى إن كان مقلقلًا أو مكسورًا. كانت المرأة تملك قوة أكثر من الرجل الذي تأرجح بجنون لكنه لم يسدد ضربة واحدة، لقد كانت لكمتها هي التي أصابت فكيه.

قال: «كان هناك طفل صغير في السيارة. رضيع!»

فصرخت فيليسيتي: «لم يكن طفلك ولم يكن ذلك من شأنك»

تأكد بوكر أنها قلقلة بسيطة لكنه سيرى طبيب أسنان على كل حال.

في طريق العودة بالحافلة عرف كل منهما أن الأمر انتهى دون أن يقولا ذلك. واصلت فيليسيتي إزعاجها لساعة أو أكثر بعد أن وصلا شقتها، لكنها بسبب صمت بوكر الثقيل كفت عن ذلك وذهبت للاستحمام، ولم ينضم إليها كما اعتادا.

كان تاريخ عمل بوكر هزيلًا؛ فقد عمل لفصل دراسي محرج وكارثي كمدرس موسيقى في مدرسة ثانوية، المدرسة الحكومية الوحيدة التي استطاع التدريس فيها لأنه ليس لديه رخصة، واستبعد من تجارب الأداء القليلة التي خضع لها، كانت موهبته في العزف على الترومبيت جميلة لكن ليست استثنائية.

تغير حظه في اللحظة المناسبة تمامًا عندما تتبعته كارول لتحول إليه رسالة موجهة إليه من شركة قانونية. توفي السيد درو ولدهشة الجميع فقد أدرج أحفاده- لا أبناءه- في وصيته. كان بوكر سيتقاسم مع إخوته

ثروة العجوز التي كان يتباهى بها دومًا. رفض التفكير بالجشع والإجرام اللذين صنعا ثروة جده، وقال في نفسه أن المال القذر قد صار نظيفًا بموته. ليس سيئًا. يمكنه الآن استئجار منزله الخاص، غرفة هادئة في منطقة هادئة ويستمر في العزف إما في الشوارع أو في الحانات القديمة الصغيرة. كان الرجال يعزفون في الزوايا لأنهم لم يتمكنوا من الحصول على استديو، ولم يكن عزفهم من أجل المال، الذي كان تافهًا، بل من أجل التمرين والخبرة مع بعضهم بعضًا في العلن أمام جمهور لا يدفع ولذا فهو لا ينتقد وغير متطلب.

ثم جاء يوم تغير فيه وتغيرت حياته.

***

حدق بوكر فاغرًا فاه بشابة سوداء مزرقة تقف عند حافة الرصيف ضاحكة وقد صعقه جمالها ببساطة. كانت ثيابها بيضاء وشعرها مثل مليون فراشة سوداء تغفو على رأسها، كانت تتحدث إلى امرأة أخرى بيضاء بلون الطباشير بضفائر شقراء. اقتربت سيارة ليموزين عند حافة الرصيف وانتظرت كلتاهما أن يفتح السائق الباب لهما. ورغم أن رؤية الليموزين تغادر أحزنته، إلا أن بوكر ابتسم وابتسم حين كان يسير إلى مدخل محطة القطار، حيث كان يعزف مع عازفي الجيتار. لم يكن هناك أي منهما، ميتشل أو شايس، وانتبه حينها إلى المطر الناعم والمنتظم. كانت الشمس ما تزال متوهجة فبدت قطرات المطر المنهمرة من السماء الزرقاء الفاتحة مثل زجاج يتكسر في شذرات من الضوء على الرصيف. قرر أن يعزف على الترومبيت وحده في المطر على كل حال، متأكدًا أن أحدًا من المشاة لن يتوقف للاستماع؛ بل كانوا يغلقون مظلاتهم ويهبطون الدرج بسرعة إلى القطارات. كان ما يزال تحت سيطرة الجمال النقي للفتاة التي

رآها، فرفع الترومبيت إلى شفتيه، وما انبعث كان موسيقى لم يعزفها من قبل، كانت نغماتها حزينة وهادئة وطويلة، طويلة جدًا مثل الأجراس العائمة في حبات المطر.

لم يجد بوكر كلمات تصف إحساسه، لكنه عرف أن الهواء المبلل بالمطر كانت له رائحة الليلك عندما كان يعزف وهو يتذكرها، وبدت الشوارع بفوضاها جميلة لا قذرة؛ محلات البقالة وصالونات التجميل والمطاعم ومتاجر التوفير المتكئة على بعضها بعضًا بدت عائلية وودودة بمعنى الكلمة. كلما تخيل عيناها تبرقان تجاهه أو شفتاها مفتوحتين في ابتسامة مغوية طائشة، لم يكن يشعر بتعاظم الرغبة فحسب بل بتبدد التردد والحزن الذي خيم عليه لسنوات منذ وفاة آدم. عندما مشى في تلك الغيمة وأصبح راضيًا عاطفيًا كما كان قبل أن يتزلج آدم عند الغروب، كانت هي هناك. جالاتيا(*) سوداء مثل منتصف الليل حية الآن ودومًا.

بعد أسابيع من رؤيته لها أول مرة تنتظر وصول الليموزين، كانت هناك ثانية تقف في طابور أمام الاستاد الرياضي حيث كانت هناك حفلة لـ «بلاك غوتشو»، فرقة رائعة جديدة وواعدة تعزف مزيجًا من الجاز البرازيلي وجاز نيو أورلينز، في حفلة واحدة فقط. كان الطابور طويلًا صاخبًا متوترًا، لكن عندما فتحت الأبواب للدخول، تمكن من تخطي أربعة أشخاص خلفها وعندها حين جلست الحشود في المقاعد استطاع أن يقف خلفها تمامًا.

في جو مشحون بالموسيقى، كانت قواعد الجسد ملغاة والتلاطف

---

* **هي التمثال المنحوت من العاج في أسطورة بيجماليون التي دبت فيها الحياة بعد ذلك.**

الجنسي كثيفًا كالقشدة، بدا تطويق خصرها بذراعيه أكثر من مجرد لفتة عادية، كان حتميًا، ورقصا معًا ورقصا. حين توقفت الموسيقى استدارت جالاتيا لتواجهه وتمنحه الابتسامة الطائشة التي تخيلها دومًا.

«برايد» قالت عندما سألها عن اسمها. فهمس: اللعنة.

***

كانت ممارستهما للحب منذ البداية رائقة ومبدعة وطويلة الأمد، وكان لابد لبوكر أن يمنع نفسه عمدًا لليالي متتالية ليجعل العودة إلى فراشها جديدة. كانت علاقتهما بلا عيوب، وقد أحب تحديدًا قلة فضولها حول حياته الشخصية، وعلى عكس ما كان عليه الأمر مع فيليسيتي لم يكن هناك تطفل. كانت برايد جميلة على نحو صاعق، ولديها ما تفعله كل يوم ولا تحتاج وجوده كل لحظة. كان حبها لذاتها منسجمًا مع جو شركة التجميل التي تعمل بها وعكست شغفه بها. لذا حين كانت تثرثر عن زملائها في العمل والمنتجات والسوق كان يراقب عينيها الفاتنتين اللتين كانتا معبرتين بعمق وتقولان أكثر بكثير مما تفعله اللغة وحدها. كان يرى أن العينين الناطقتين تلائمان الموسيقى في صوتها، وكل قسمة؛ نتوء عظمتي وجنتيها، وفمها المغري، وأنفها وجبهتها وذقنها بالإضافة إلى تلك العينين؛ كانت أكثر جاذبية وأكثر إشباعًا جماليًا بسبب بشرتها السوداء كمنتصف الليل. سواء كان مستلقيًا تحت جسدها أو يحوّم فوقه أو يطوقها بين ذراعيه، كان سوادها يثيره. ثم أصبح واثقًا أنه لا يحمل الليل فقط بل يملكه، وإذا لم يكن الليل الذي يحمله بين ذراعيه كان باستطاعته رؤية نور النجوم في عينيها. كانت براءتها وحس دعابتها الغافل يبهجانه. عندما طلبت منه، وهي لا تضع مساحيق التجميل وتعمل في شركة تقوم على التجميل، أن يساعدها في اختيار لون ملمع

الشفاه الأكثر جاذبية ضحك عاليًا. كان إصرارها على ارتداء الثياب البيضاء فقط يمتعه، وقليلًا ما كان في مزاج للذهاب إلى الحانات لأنه لا يرغب أن يشاركه فيها أحد، ورغم ذلك كان الرقص معها في نوادي خفيفة الإضاءة ودافئة على أغاني بصوت مايكل جاكسون الرفيع أو صراخ جيمس براون لا يقاوم. كان الاقتراب منها في حانات الراب ساحرًا لكليهما، ولم يرفض لها طلبًا في اصطحابها إلى أي مكان باستثناء جولات التسوق.

كانت بين الحين والآخر تتخلى عن قناع المرأة الجميلة الناجحة جدًا في السيطرة الكاملة وتعترف له ببعض العيوب أو الذكريات المؤلمة من الطفولة، وكان، لأنه يعلم جيدًا كيف كانت جروح الطفولة تنز صديدًا ولا تلتئم أبدًا، يواسيها وهو يخفي الغضب الذي شعر به لمجرد التفكير بأحد يؤذيها.

كانت علاقة برايد المعقدة بأمها وأبيها البغيض تعني أنها، مثله تمامًا، متحررة من روابط العائلة. لقد كان الأمر مقتصرًا على كليهما، باستثناء صديقتها المزيفة الخبيثة بروكلين كانت مقاطعات زملائها تقل يومًا بعد يوم. كان ما يزال يعزف مع ميتشل وشايس في إجازات نهاية الأسبوع وبعض الأمسيات، لكن كانا يقضيان صباحات عظيمة تحت ضوء الشمس على الشاطئ وأمسيات باردة يمسكان بأيدي بعضهما في تخيل لرقصات جنسية سيؤديانها في كل زاوية من شقتها، لقد أيقنا أنهما ابتكرا جنسًا بوقار كالكهنة وابتكار كالشياطين.

عندما تكون برايد في عملها، كان بوكر يبدد وحدته بالتمرن على الترومبيت، وخربشة الملاحظات ليرسلها إلى عمته المفضلة كوين، وبما أنه ليس هناك كتب في شقة برايد - مجلات أزياء وأسرار- كان

يتردد على المكتبة كثيرًا لقراءة كتب تجاهلها أو أساء فهمها حين كان في الجامعة و إعادة قراءتها. اسم الوردة مثلًا، أو ذكريات العبودية التي أثرت به كثيرًا فألف مقطوعة متوسطة شجية للاحتفاء بالقصص. قرأ لتوين مستمتعًا بقسوة دعاباته، ولوالتر بينجامين معجبًا بجمال الترجمة، وقرأ السيرة الذاتية لفريدريك دوجلاس ثانية متذوقًا لأول مرة البلاغة التي أظهرت وأخفت كراهيته. قرأ لهيرمان ميلفيل وقد كسر قلبه بيب لأنه ذكره بآدم وحيدًا ومهجورًا ومتورمًا من موجة شر طارئة.

ستة أشهر في نعيم الجنس الرائع والموسيقى الحرة وتحدي الكتب وصحبة برايد السلسة غير المتطلبة، انهارت قلعة الحكايات في الوحل والرمل اللذين بني عليهما ذلك الزخرف. وهرب بوكر.

الجزء الرابع

بروكلين

لا شيء. مكالمة لمديرنا التنفيذي لطلب تمديد الإجازة. لإعادة تأهيل، إعادة تأهيل عاطفي أو أيًا يكن. لكن لا شيء عن وجهتها أو سببها حتى اليوم. ملاحظة مخربشة على ورقة ملاحظات صفراء بأسطر. يا إلهي. لم يكن علي قراءتها لأعرف ما تقول «آسفة أنني هربت، اضطررت لذلك. عداك كان كل شيء من حولي ينهار...إلخ»

العاهرة الجميلة الحمقاء لم تذكر أين كانت تذهب أو كم ستبقى. كنت متأكدة من أمر وحيد بأنها تتبع ذلك الرجل، يمكنني قراءة ما يدور في ذهنها مثل عنوان يمر أسفل شاشة التلفاز. إنها موهبة أتمتع بها منذ الطفولة. مثلما سرقت المالكة نقودنا وكذبت قرب مائدة طعامنا وقالت إننا تأخرنا في دفع الإيجار، أو عندما بدأ عمي بالتفكير في حشر أصابعه بين ساقيّ ثانية، حتى قبل أن يعرف هو ما كان يدبر. كنت أختبئ أو أهرب أو أصرخ من ألم معدة كاذب لتستيقظ أمي من غفوتها الثملة لتعتني بي. صدق ذلك. كنت أشعر دومًا بما يريده الناس وكيف أسعدهم، أو لا. لقد أسأت الفهم مرة واحدة فقط، وكان ذلك مع حبيب برايد.

أنا أيضًا هربت يا برايد، لكني كنت في الرابعة عشرة ولم يكن هناك أحد سواي ليعتني بي ولذا خلقت نفسي وقويت نفسي. ظننتك فعلت أيضًا باستثناء حين يكون الأمر متعلقًا بالعشاق. كنت أعرف تمامًا أن الأخير ▯ استغلالي إن كنت أستطيع القول- كان سيحولك إلى الفتاة الصغيرة المذعورة التي كنتها في السابق. استسلمت بعد شجار واحد مع مجرمة مجنونة، صرت غبية لتتخلي عن العمل الأفضل في العالم.

لقد بدأت العمل بكنس متجر مصفف شعر ثم عملت كنادلة إلى أن حصلت على عمل في صيدلية، قبل العمل في سيلفيا المتحدة بوقت طويل، وقاتلت مثل الشيطان لكل عمل حصلت عليه ولم أدع شيئًا، لا شيء يوقفني.

لكن بالنسبة لك كان الأمر «وا، وا، كان علي الهرب...» إلى أين؟ إلى مكان ليس فيه قرطاسية لائقة أو حتى بطاقة بريدية؟

برايد، أرجوك.

سرعان ما تعبت فتاة المدينة من مربعات الضجر في البلدات الريفية الصغيرة. أيًا كان الطقس، شمس ساطعة أو مطر ثاقب، بدا الانطباع عن الصناديق المتآكلة التي تخفي سكانًا كسالى مرهقًا للنظر الأكثر حدة. لقد كان مكانًا مناسبًا للهيبيين السابقين ليعيشوا مبادئهم المناهضة للرأسمالية قرب حافة طريق المقاطعة المطروق نادرًا. عاش إيفلين وستيف حياة مثيرة من المجازفة والتصميم في ماضيهما المفعم بالمغامرات، لكن ماذا عن الأشخاص العاديين الذين ولدوا في هذه الأماكن ولم يغادروها أبدًا؟ لم تكن برايد تشعر بالاستعلاء على صف المنازل الصغيرة الحزينة والبيوت المتنقلة على جانبي الطريق، لكنها كانت محتارة فقط. ما الذي يجعل بوكر يختار هذا المكان؟ ومن هي ك. أوليف بحق الجحيم؟

قادت سيارتها لمئة وسبعين ميلًا على الطرق الترابية وبعيدًا عنها، الطرق التي أنشئ بعضها أصلًا بكعوب الأحذية وقطعان الذئاب. كان يمكن لسائقي الشاحنات أن يسلكوها، لكن الأمر كان صعبًا على سيارة جاغوار أبدل بابها بآخر من طراز مختلف. قادت برايد بحذر ناظرة إلى الأمام خوفًا من العوائق، حية كانت أم جمادًا. عندما رأت اللافتة المعلقة على جذع شجرة صنوبر خفف تعبها خوف متصاعد. رغم أنه لم يعد

هناك تغيرات جسدية إلا أنها كانت مذعورة من تأخر الطمث لشهرين على الأقل وربما ثلاثة، الصدر المسطح والعانة والإبطين دون شعر، ثقب الأذنين والوزن الثابت، حاولت لكنها فشلت في نسيان ما أيقنت أنه تحولها المجنون إلى فتاة صغيرة مذعورة.

تبين لها أن ويسكي تتألف من نصف دزينة من المنازل أو أكثر قليلًا على جانبي طريق الحصى المؤدي إلى صف من القاطرات والمنازل المتنقلة. كان هناك جدول ضيق لكنه عميق يجري محاذيًا لصف من الأشجار الحزينة. لم يكن للمنازل عناوين لكن بعض المنازل المتنقلة كان لها أسماء مكتوبة على صناديق بريد متينة. تجولت برايد، تحت الأنظار المرتابة بالسيارات الغريبة والزوار الغرباء، ببطء إلى ان رأت اسم كوين أوليف مطبوعًا على صندوق بريد أمام منزل متنقل لونه أصفر شاحب، فأوقفت سيارتها وترجلت منها وكانت تسير نحو الباب عندما شمت رائحة بنزين ونار كانت قادمة من خلف المنزل. عندما سارت نحو الفناء الخلفي رأت امرأة بدينة بشعر أحمر كانت ترش البنزين على النوابض المعدنية لسرير، بعناية ملاحظة المواضع التي كانت ألسنة اللهب فيها بحاجة للمزيد.

أسرعت برايد إلى السيارة وانتظرت، واقترب طفلان منجذبين ربما بالسيارة الأنيقة، لكنهما مندهشان من المرأة قرب المقود. حدق كلاهما بها لدقائق دون أن تطرف عيونهما من الدهشة. كانت تعرف جيدًا معنى أن تسير في ساحة وترى النظرات المتبادلة بين الغرباء البيض. لم يكن تجاهل النظرات ممكنًا لأن اللهاث الذي يثيره سوادها كان يتبعه الحسد الذي يولده جمالها. ورغم أنها، بمساعدة جيري، استغلت بشرتها الداكنة بإبرازها وتجميلها، إلا أنها تذكرت حوارًا دار بينها وبين بوكر

يومًا، حين كانت تشكو له من أمها وأخبرته أن سويتنس كانت تكرهها لسواد بشرتها.

قال لها بوكر: «إنه مجرد لون، صبغة جينية وليس عيبًا، ليس لعنة، ليس نعمة ولا خطيئة».

فردت: «لكن، الآخرين يفكرون بعنصرية...»

قاطعها بوكر: «علميًا ليس هناك شيء اسمه العرق يا برايد، ما يعني أن العنصرية دون عرق هي خيار. يعلمها أولئك الذين يحتاجونها طبعًا، لكنها تظل خيارًا، والأشخاص الذين يمارسونها لا يساوون شيئًا دونها».

كانت كلماته منطقية في ذلك الوقت ومهدئة لكنها ليس لها علاقة بشؤون الحياة اليومية؛ مثل الجلوس في سيارة تحت الأنظار المندهشة لأطفال بيض لم يكونوا ليفتنوا أكثر لو أنهم كانوا في متحف للديناصورات. ومع ذلك رفضت بشدة أن تحيد عن مهمتها ببساطة لأنها كانت خارج منطقة الراحة من الشوارع المعبدة والبساتين الضيقة محاطة بأشخاص مختلفين عنها عرقيًا وربما لن يقدموا لها المساعدة لكنهم لن يؤذوها. وصممت على اكتشاف معدنها ▯ من القطن أو الفولاذ- ولذا لن يكون هناك تراجع، لن يكون هناك عودة للوراء.

مرت نصف ساعة وقد رحل الأطفال والشمس الساطعة في أعلى السماء قد أدفأت مقاعد السيارة. مشت برايد، بعد أن أخذت نفسًا عميقًا، باتجاه الباب الأصفر وطرقته، وقالت عندما ظهرت سيدة الحريق: «مرحبًا، عفوًا، أبحث عن بوكر ستاربيرن، وهذا هو عنوانه الذي لدي».

قالت المرأة: «ذلك الولد، يصلني الكثير من بريده، مجلات ودليل سلع وأشياء يكتبها بنفسه»

«هل هو هنا؟» فتنت برايد بقرطي المرأة، حلقات ذهبية بحجم صدفة.

«أم.. أم..» هزت المرأة رأسها وهي تتأمل عيني برايد «لكنه قريب».

«حقًا؟ كم يبعد عن هنا؟» تنهدت برايد بعد أن شعرت بالراحة أن ك. أوليف لم تكن منافسة شابة، وسألت عن الاتجاهات.

«يمكنك أن تسيري، لكن ادخلي. لن يذهب بوكر إلى أي مكان، إنه عالق، لقد كسرت ذراعه. هيا ادخلي، تبدين مثل راكون عثر عليه ويرفض أن يأكل».

غصت برايد. كانت تسمع على مدى السنوات الثلاث الماضية كم كانت أنيقة وجميلة - في كل مكان ومن الجميع تقريبًا- ومثيرة ومدهشة وحالمة، واو! والآن تخبرها هذه المرأة العجوز ذات الشعر الصوفي الأحمر وتنتقد عينيها وتلغي كل مفردات الإطراء دفعة واحدة. لقد كانت مرة أخرى الفتاة القبيحة الصغيرة شديدة السواد في منزل أمها.

ثنت كوين أصبعها «تعالي إلى هنا يا فتاة، أنت بحاجة إلى تغذية»

«اسمعي آنسة أوليف...»

«كوين فقط يا عزيزتي، واسمي هو أو-لي-فاي. ادخلي هنا، لا أحظى بزوار دومًا وأعرف الجائع عندما أراه».

حسن، كان ذلك صحيحًا. فكرت برايد. غطى قلقها أثناء الرحلة الطويلة على أصوات معدتها من الجوع، فأذعنت لكوين ودهشت

بسعادة حين رأت الترتيب والراحة والجاذبية في الغرفة، وتساءلت للحظة إن كانت قد استدرجت إلى وكر ساحرة. كان من الواضح أن كوين تتقن الخياطة والحياكة والحبك ونسج الدانتيلا. كانت الستائر وأغطية المقاعد والمخدات والمناديل الموشاة كلها مصنوعة يدويًا. واللحاف الموضوع على لوح السرير الفارغ الذي كانت نوابضه تبرد في الخارج، كان مجمعًا من ألوان ناعمة، مثل كل شيء آخر، لا تتطابق على نحو جميل. كما وزعت القطع الأثرية الصغيرة مثل إطارات الصور والطاولات الجانبية بشكل غريب. بالإضافة إلى جدار كامل مغطى بصور الأطفال، وكان هناك قدر يغلي على موقد ذي شعلتين. وضعت كوين التي لم تعتد الرفض طبقين من البورسلين على مفرشين من الكتان إلى جانب منديلين مناسبين وملاعق فضية بمقابض مزخرفة.

جلست برايد إلى مائدة صغيرة على كرسي بوسادة مزينة وراقبت كوين تسكب حساء كثيفًا في الطبقين، وطافت قطع الدجاج بين الفاصولياء والبطاطا حبوب الذرة والطماطم والكرفس والفلفل الأخضر والسبانخ وبعض قطع المعكرونة. لم تتمكن برايد من تمييز التوابل القوية؛ كاري؟ هال؟ ثوم؟ فلفل حريف؟ فلفل أسود وأحمر؟ لكن النتيجة كانت رائعة. أضافت كوين سلة من الخبز المسطح الدافئ، وانضمت إلى ضيفتها وباركت الطعام. لم تتحدث أي منهما أثناء الأكل لدقائق طويلة، ورفعت برايد أخيرًا رأسها عن طبقها ومسحت شفتيها وتنهدت وسألت مضيفتها: «لماذا كنت تحرقين نوابض سريرك؟ لقد رأيتك في الخلف».

أجابت كوين: «بسبب حشرات الفراش. أحرقها مرة كل سنة قبل أن تفقس بيوضها».

«أوه، لم أسمع بذلك من قبل» ثم سألت عندما شعرت بالراحة أكثر مع المرأة «ما نوع الأشياء التي كان بوكر يرسلها إليك؟ قلت إنه كان يرسل إليك بعض الكتابات».

«أها، لقد فعل، كان يرسل بين الحين والآخر».

«عم تتحدث؟»

«لا أعرف. ساريك بعضها إن أحببت. أخبريني لمَ تبحثين عن بوكر؟ هل يدين لك بالمال؟ لا يمكن أن تكوني حبيبته، فلا يبدو أنك تعرفينه جيدًا».

«لا أعرفه، لكني كنت أظنني أفعل» لم تقل ذلك لكن خطر لها فجأة أن الجنس الرائع ليس معرفة، لقد كان محض معلومات .

قربت برايد المنديل من شفتيها ثانية «كنا نعيش سويًا، ثم هجرني، هكذا» وفرقعت برايد بأصابعها «تركني دون أن يقول شيئًا».

ضحكت كوين «نعم هذه عادته، صحيح، لقد هجر عائلته كلها، سواي».

«حقًا؟ لماذا؟» لم ترغب برايد أن تصنف على أنها من عائلة بوكر لكن الخبر فاجأها.

«قتل أخوه الأكبر عندما كانا طفلين ولم تعجبه ردة فعل العائلة».

همهمت برايد «أووه، هذا محزن» واصطنعت نبرة مقبولة من التعاطف لكنها صدمت أنها لم تكن تعرف شيئًا عن ذلك.

«أكثر من محزن، لقد حطم العائلة بأكملها».

«ما الذي فعلوه له ليهجرهم؟»

«لقد تجاوزوا الأمر، وبدأوا يعيشون حياة كما كانت الحياة، وأرادهم أن يؤسسوا تذكارًا، مؤسسة أو شيئًا من هذا القبيل باسم أخيه، لكنهم لم يوافقوا، مطلقًا. علي أن أتحمل جزءًا من المسؤولية عن هذا الانفصال. لقد أخبرته أن يبقي أخاه أقرب، وأن يبكيه بقدر ما يحتاج، ولم أدرك ما أخذ من كلامي. على أية حال، موت آدم أصبح حياته هو، وأظنها حياته الوحيدة» نظرت كوين إلى طبق برايد الفارغ «هل تريدين المزيد؟»

«لا شكرًا، لكنه كان لذيذًا. لا أذكر أنني أكلت شيئًا بهذه اللذة».

ابتسمت كوين «إنها وصفة الأمم المتحدة الخاصة بي من أطباق بلدان أزواجي كلهم، السبعة. من دلهي إلى دكار ومن تكساس إلى أستراليا وقليلون فيما بينهم ». كانت تضحك وأكتافها تهتز «كثير من الرجال وكلهم متماثلون في أمر وحيد»

«بم يتشابهون؟»

«التملك»

كل هؤلاء الأزواج ومع ذلك كانت وحيدة، فكرت برايد. «أليس لديك أبناء؟» كان واضحًا أن لديها أبناء، كانت صورهم في كل مكان.

«الكثير منهم. اثنان يعيشان مع والديهما وزوجاتهما، واثنان في الجيش - واحد في البحرية والآخر في القوات الجوية- وآخرهم ابنة في كلية الطب، إنها فتاتي المفضلة، وقبل الأخير ثري قذر في مكان ما في مدينة نيويورك، يرسل معظمهم إلي المال فلا يضطرون لزيارتي. لكنني أراهم» ولوحت للصور التي تطل من الإطارات الأنيقة. «وأعرف كيف وبمَ يفكرون. ظل بوكر على تواصل معي دومًا، رغم ذلك. تعالي، سأريك بم وكيف يفكر». سارت كوين إلى خزانة رتبت فيها أدوات

الخياطة أو علقت بأناقة، ورفعت من أرضيتها علبة للخبز قديمة الطراز، وبعد البحث في محتوياتها أخرجت حزمة رفيعة من الأوراق المشبوكة معًا وناولتها لضيفتها.

يا له من خط جميل. فكرت برايد مدركة فجأة أنها لم يسبق لها أن رأت أي شيء كتبه بوكر ولا حتى اسمه. كان هناك سبع صفحات، واحدة في كل شهر كانا فيه معًا بالإضافة إلى أخرى إضافية. قرأت الصفحة الأولى ببطء، وكانت سبابتها تتبع السطور، لأنه لم يستخدم علامات ترقيم.

هي يا فتاة ما الذي يدور في رأسك الأجعد إلى جانب الغرف المعتمة والرجال السود الراقصين قريبًا جدًا ليريحوا الفم الجائع الذي يطلب أكثر لابد أنه هناك في الخارج في مكان ما ينتظر لسانًا وأنفاسًا ليمسد على الأسنان التي تقضم الليل وتبتلع العالم كله الذي أنكرك فتخلصي من هذه الأحلام الضبابية واستلقي على الشاطئ بين ذراعي بينما أغطيك بالرمل الأبيض من شواطئ لم تريها من قبل تصفعها مياه صافية جدًا وزرقاء تجعلك تذرفين الدموع وتخبرك أنك تنتمين أخيرًا إلى الكوكب الذي ولدت عليه ويمكنك أن تنضمي الآن إلى العالم الخارجي في السلام العميق للتشيللو.

قرأت برايد الكلمات مرتين وفهمت القليل منها فقط، لكن الصفحة الثانية هي التي جعلتها تشعر بعدم الارتياح.

خيالها منزه بالطريقة التي يقطع بها العظام أو يحكها دون أن يمس النخاع حيث ينقر الشعور القذر مثل كمان ستنقطع أوتاره من الخوف وتصرخ بخسارة نغمتها لأن جهلها الدائم أفضل لها

من الحياة السريعة.

عرضت كوين بعد أن فرغت من تنظيف الأطباق على ضيفتها كأسًا من الويسكي لكن برايد رفضت.

حين قرأت الصفحة الثالثة ظنت أنها تذكرت حوارًا مع بوكر قد يكون حرضه على كتابتها، الحوار الذي وصفت فيه مالك البناية وتفاصيل من طفولتها.

لقد قبلت مثل وحش عبء الجلد بلعنة الغريب والوعيد الغافل الذي يحمله بالندبة التي يتركها كتعريف أمضيت حياتك تدحضه رغم أن تلك الكلمة البغيضة هي مجرد خط رفيع مرسوم على الشاطئ وسيختفي سريعًا في عالم البحر في أي لحظة عندما تغنجه موجة غبية بالتساوي مثل اللمسة الطارئة على وقفة الكلارينيت التي يحولها العازف إلى صمت ليسمح للنغمة الحقيقية بالرنين عاليًا.

قرأت برايد ثلاث صفحات أخرى في تواتر سريع.

إن محاولة فهم الحقد العنصري تغذيه فقط، وتجعله منتفخًا مثل بالون ويطفو متغطرسًا عاليًا خائفًا من السقوط على الأرض حيث يمكن لنصل من العشب أن يثقبه متيحًا لروثه السائل أن يلوث الجمهور المفتون بالطريقة التي يدمر بها العفن مفاتيح البيانو البيضاء والسوداء سويًا، حادًا ومسطحًا ليؤلف مرثية لانحلاله.

أرفض أن أخجل من خجلي، أنت تعرف، الخجل الذي حُدد لي الذي يتماشى مع الفضل الوضيع والأخلاق المنحطة

لأولئك الذين يصرون على هذه الأكثر بساطة من المشاعر الإنسانية من الخسة والفساد ببساطة ليستروا جبنهم بالتظاهر أنه مماثل لنقاء البانجو.

شكرًا لك. لقد أظهرت لي الغضب والتهور العدائي والقلق القلق القلق الموشى بكِسر عنيدة من الضوء والحب ويبدو لطيفًا ليكون قادرًا على الرحيل ولا تنثني في حزن عميق فلا يحطم القلب بل العقل الذي يعرف صرخة المزمار والطريقة التي يبكي بها في خرق من الصمت ليظهر جمالك الفاتن جدًا ويحبسه والذي يحول نغمته إلى ألق فضاء يطاق.

رفعت برايد عينيها عن الصفحات مشوشة ونظرت إلى كوين التي قالت «مثيرة للاهتمام، أليس كذلك؟»

فأجابت برايد: «جدًا. لكنها غريبة أيضًا. أتساءل إلى من كان يتحدث».

قالت كوين: «لنفسه. أراهنك أنها كلها حوله، ألا تظنين ذلك؟»

همهمت برايد «لا. هذه عني، عن أيامنا معًا». ثم قرأت الصفحة الأخيرة.

عليك أن تأخذ كل حسرة مهما كان نوعها على محمل الجد بشجاعة لتسمح لها بالتوهج والاحتراق مثل النجمة الخافقة إنها عاجزة ولا ترغب بأن تلطف لتصبح تقريعًا مؤلمًا للذات لأن ألقها المتفجر سيرن بشكل مبرر صاخبًا مثل جلبة الطبل.

أنزلت برايد الأوراق وغطت عينيها.

قالت كوين: «اذهبي لرؤيته. إنه في آخر الشارع المنزل الأخير قرب الجدول. هيا انهضي. اغسلي وجهك واذهبي».

«لا أعتقد أن علي ذلك الآن» هزت برايد رأسها، كانت تعتمد على مظهرها حتى الآن، وكيف كان لجمالها تأثير جيد. لم تكن تعلم سطحيته أو جبنها، الدروس الحيوية التي لقنتها لها سويتنس وغرستها في عمودها الفقري حتى تحنيه.

بدت كوين منزعجة: «ماذا دهاك؟ لقد قطعت كل هذه المسافة لتديري ظهرك وترحلي؟»

ثم بدأت تغني مقلدة صوت طفل:

لا أعرف لماذا

ليست هناك شمس في السماء...

لا يمكنني المتابعة.

كل ما أملكه رحل،

جو عاصف.....

صفعت برايد الطاولة «اللعنة! إنك محقة. إنك محقة تمامًا! هذا الأمر يتعلق بي وليس به، بي أنا!»

***

«أنت؟ اخرجي!» نهض بوكر من سريره الضيق وأشار إلى برايد، التي كانت تقف على باب مقطورته.

«تبًا لك! لن أرحل من هنا إلى أن....»

«قلت لك اخرجي! الآن!» كانت عينا بوكر ميتتين وحيتين معًا بالكراهية. أشارت ذراعه غير المجبرة إلى الباب، فركضت برايد تسع خطوات سريعة وصفعت وجه بوكر بأقسى ما استطاعت. فضربها بقوة تكفي لإيقاعها. كانت تجاهد لتنهض فجذبت زجاجة مايكلوب من الطاولة وكسرتها على رأسه، فسقط بوكر ثانية على سريره دون حراك. حدقت برايد بالدم المنزلق خلف أذنه اليسرى وهي تشد قبضتها على عنق الزجاجة المكسورة. استعاد وعيه بعد ثوانٍ واتكأ على مرفقه واستدار لينظر إليها بعينين ضيقتين مشوشتين.

صرخت: «لقد هجرتني، دون قول كلمة! لا شيء! والآن أريد هذه الكلمة، أريد سماعها مهما كانت، الآن!»

زمجر بوكر وهو يمسح الدم من الجانب الأيسر لوجهه بيده اليمنى «ليس علي إخبارك بشيء»

فرفعت الزجاجة المكسورة «أوه، نعم عليك ذلك».

«اخرجي من بيتي قبل أن يقع أمر سيء»

«اخرس وأجبني!»

«يا إلهي! يا امرأة»

«لماذا؟ علي أن أعرف يا بوكر».

«عليك أولًا أن تخبريني لم اشتريت هدايا لمتحرشة بالأطفال والتي تقضي عقوبة في السجن بسببها، لأجل المسيح أخبريني لم كنت تتملقين الوحش؟»

«لقد كذبت! لقد كذبت! لقد كذبت! لقد كانت بريئة. ساعدت

على إدانتها لكنها لم تفعل شيئًا من ذلك. أردت أن أصلح الأمر لكنها ضربتني حتى الموت وأستحق ذلك».

لم تكن حرارة الغرفة مرتفعة، لكن برايد كانت تتعرق، من جبهتها وشفتها العليا وحتى إبطيها كانا مبتلين.

«كذبت؟ من أجل أي شيء بحق الجحيم؟»

«لتمسك أمي بيدي».

«ماذا؟»

«وتنظر إلي بعينين فخورتين، ولو لمرة»

«وهل فعلت إذن؟»

«نعم، لقد أحبتني أيضًا».

«إذن تقصدين أنك....»

«اخرس وتكلم! لماذا هجرتني؟»

«أوه يا إلهي».

مسح بوكر الدم من جانب وجهه. «حسن، اسمعي. أخي قتله معتوه مجرم مثل تلك التي ظننت أنك تسامحينها و....»

«لا يعنيني! لم أفعلها! لم أكن من قتل أخاك»

«حسن! حسن! حسن! فهمت ذلك لكن....»

«لكن لا شيء. كنت أحاول الاعتذار من شخص حطمته، لكنك كنت تمضي وتلوم الجميع. أيها الوغد. خذ امسح الدم عن يدك» رمت برايد منشفة أطباق نحوه ورمت بما تبقى من الزجاجة. بعد أن مسحت

كفيها بسروالها الجينز وأبعدت شعرها عن جبهتها نظرت بثبات نحو بوكر. «ليس عليك أن تحبني بل عليك أن تحترمني أيها اللعين» جلست في كرسي قرب الطاولة وقاطعت ساقيها.

في صمت طويل كان يقطعه صوت أنفاسهما فقط لم يكونا يحدقان ببعضهما بل بعيدًا، بالطاولة، بأيديهما، عبر النافذة، ومرت دقائق.

أخيرًا شعر بوكر أن لديه شيئًا حازمًا ومهمًا ليقوله، ليشرحه لكن حين فتح فمه تجمد لسانه، وطارت الكلمات. لا يهم، فقد كانت برايد نائمة على الكرسي وذقنها على صدرها ومالت ساقها الطويلتان.

***

لم تقرع كوين بل فتحت باب مقطورة بوكر ودخلت ببساطة، وحين رأت برايد متمددة غافية على الكرسي والكدمة فوق عين بوكر قالت «يا إلهي العظيم. ماذا حدث؟»

قال بوكر «شجار».

«هل هي بخير؟»

«نعم. فجرت غضبها ونامت».

«شجار. قطعت كل تلك المسافة لتضربك؟ لماذا؟ من أجل الحب أو الدناءة؟»

«كلاهما، ربما».

«حسن، لنرفعها من هذا الكرسي إلى السرير».

«حسن» نهض بوكر، وبمساعدة كوين وذراعه السليمة وضعاها على سريره الضيق غير المرتب، فتأوهت برايد لكنها لم تستيقظ.

جلست كوين إلى الطاولة «ما الذي ستفعله بشأنها؟»

رد بوكر: «لا أدري، لقد كان الأمر رائعًا لكلينا لبعض من الوقت».

«ما سبب الانفصال؟»

«الكذب والصمت، لأننا لم نقل الحقيقة أو السبب».

«عن؟»

«عنا كأطفال، أمور حدثت، لماذا فعلنا بعض الأمور، وتصرفنا بناء على ما حدث في طفولتنا».

«آدم بالنسبة لك؟»

«آدم بالنسبة لي».

«وبالنسبة لها؟»

«كذبة كبيرة أطلقتها عندما كانت صغيرة وأدت إلى سجن امرأة بريئة. عقوبة طويلة بتهمة اغتصاب الأطفال وهو ما لم تفعله المرأة. فرحلت بعد أن تشاجرنا حول تعاطف برايد الغريب مع المرأة في ذلك الوقت، ولم أكن أود البقاء معها لهذا السبب».

«ما هو المقابل الذي كذبت من أجله؟»

«لتحصل على بعض الحب، من أمها»

«يا إلهي! يا لها من فوضى. وأنت فكرت بآدم ثانية، آدم دائمًا».

«نعم».

قاطعت كوين مرفقيها ومالت على الطاولة «إلى متى سيظل يسيطر عليك؟»

«لا أستطيع منع نفسي يا كوين».

«لا؟ هي أخبرت المرأة بالحقيقة، ماذا عنك؟»

لم يجب بوكر. وجلس كلاهما في صمت قطعه صوت شخير برايد الخفيف حتى قالت كوين «تريد سببًا نبيلًا لتفشل أليس كذلك؟ أو سبب عميق لتشعر بالتفوق»

«أوه، لا يا كوين. أنا لست كذلك».

«ماذا إذن؟ لقد حملت آدم على كتفيك ليكون معك ليل نهار ويشغل ذهنك. ألا تظن أنه متعب؟ لا بد أنه منهك من كونه مات ولم يحظ بالراحة لأنه كان عليه أن يتولى حياة شخص آخر».

«آدم لا يدير حياتي».

«لا، أنت تفعل ذلك به. هل شعرت يومًا بالتحرر منه؟ أبدًا؟»

«حسن» عاد بوكر بذاكرته إلى وقوفه تحت المطر وكيف تغيرت الموسيقى بعد أن رأى برايد تستقل الليموزين، وكيف تبدد الحزن الذي كان يعيش فيه. تذكر ذراعيه حول خصرها عندما كانا يرقصان وابتسامتها حين استدارت إليه. «حسن» قال ثانية «لقد كان قضاء الوقت معها رائعًا، رائعًا جدًا» لم يستطع إخفاء النشوة في عينيه.

«وأظن أن ذلك لم يكن كافيًا لك فاستدعيت آدم وجعلت مقتله يحول عقلك إلى جيفة ودم قلبك إلى غاز نفاذ الرائحة».

حدق بوكر وكوين ببعضهما لوقت طويل إلى أن نهضت ودون أن

تحاول إخفاء خيبة أملها قالت «أحمق» وتركته مسترخيًا في كرسيه.

***

مشت كوين ببطء عائدة إلى منزلها، وقد تنافس الحزن والبهجة على اهتمامها. كانت مسرورة لأنها لم تر شجار عشاق منذ عقود، منذ أن عاشت في المشاريع في كليفلاند حين أظهر الزوجان الشابان عواطفهما العنيفة كما في التمثيل المسرحي، وأعين للجمهور الخفي أو المرئي. لقد مرت بذلك كله مع أزواجها العدة، الذين امتزجوا كلهم الآن ليصبحوا لا أحد، باستثناء زوجها الأول جون لوفداي الذي طلقته، أو هل فعلت؟ يصعب عليها تذكر ذلك لأنها لم تطلق التالي أيضًا. ابتسمت كوين للذاكرة الانتقائية التي منحها لها التقدم بالسن. لكن الحزن قطع الابتسامة. كان الغضب والعنف المتبادلان بين بوكر وبرايد واضحين ومألوفين لدى الشباب، ومع ذلك، بعد أن رفعا الفتاة إلى السرير ووضعاها عليه، رأت كوين بوكر يسوي شعر برايد ويبعده عن جبهتها، وبالنظر سريعًا إلى وجهه كانت مندهشة من حنان عينيه.

وفكرت كوين أنهما سيفسدان الأمر، لأن كلًا منهما سيتمسك بقصة صغيرة حزينة من الألم والأسى، مشكلة وألم من زمن بعيد سكبتهما الحياة على ذاتيهما النقيتين البريئتين، وسيعيد كل منهما كتابة القصة باستمرار، عالمين بالحبكة ومخمنين فكرتها ومبتكرين مغزاها ومتناسيين أصلها. يا لها من خسارة. كانت تعرف من تجربتها الشخصية كم كان الحب صعبًا وأنانيًا وكم يسهل بتره. الامتناع عن الجنس أو الاعتماد عليه، تجاهل الأطفال أو افتراسهم، إعادة توجيه المشاعر الحقيقية أو حبسها، كان الشباب هو ذريعة الحب المزيف، حتى لم يعد كذلك، وحتى صار مجرد غباء راشدين.

كنت جميلة ذات يوم، فكرت، جميلة جدًا وكنت أظن ذلك كافيًا. حسن، لقد كان حتى لم يعد كذلك، حتى اضطررت أن أصبح شخصًا حقيقيًا، أعني شخصًا يفكر. كنت ذكية بما يكفي لأعرف أن البدانة كانت حالة وليست مرضًا؛ وذكية الآن بما يكفي لقراءة أفكار الناس الأنانيين على الفور، لكن الذكاء يأتي إلى الأطفال متأخرًا.

كل واحد من «أزواجها» خطف منها طفلًا أو اثنين، بالتوسل إليها أو بالفرار بهم، وهرّبوا بعضهم إلى مواطنهم، وآخر لديه عشيقة وأخذ اثنين منهم؛ كل واحد من أزواجها ،عدا اللطيف جوني لوفداي، كان لديه أسباب مقنعة ليتظاهر بالحب، المواطنة الأمريكية والجواز الأمريكي، والمساعدة المالية، الرعاية التمريضية والمنزل المؤقت. لم تحظ بفرصة وحيدة لتربية طفل بعد عمر الثانية عشرة. استغرق الأمر وقتًا كي تكتشف الدوافع خلف الحب الزائف، حبها وحبهم. ظنت أن استمراره بسيط وعاطفي. لقد اختبرت كوين ذلك كله، وتعيش وحيدة الآن في البرية تنسج وتحوك ممتنة، في النهاية، للمسيح الجميل لأنه منحها بطانية من النسيان ومخدة من الحكمة لتريحها في هرمها.

***

خرج بوكر- مضطربًا ومتعضًا بعمق من تحول الأمور، خاصة اشمئزاز كوين الواضح منه- وجلس على العتبات. سرعان ما حل الغروب وستتلاشى هذه القرية العشوائية دون أنوار الشارع تحت الظلام. كانت الموسيقى تأتي من عدد من أجهزة المذياع بعيدة بقدر الأنوار المشعة من أجهزة التلفاز من نوع زينيث وبايونير القديمين. شاهد عددًا من الشاحنات المحلية تهدر بالقرب وعددًا من سائقي الدراجات التي تبعتها لاحقًا. كان سائقو الشاحنات يرتدون القبعات،

وسائقو الدراجات وضعوا أوشحة مربوطة حول جباههم. أحب بوكر فوضى المكان ولا مبالاته بسكانه التي لطفها وجود عمته، الشخص الوحيد الذي يثق به. كان يعمل أحيانًا مع الحطابين، وكان ذلك يكفيه حتى وقع من الآلة وحطم كتفه، في كل مرة، كانت تقطع أفكاره المشتتة صورة المرأة السوداء الفاتنة التي تستلقي في سريره، بعد أن تعبت من الصراخ وبذل أقصى جهدها لقتله أو على الأقل لضربه. لم يعرف حقًا ما الذي جعلها تقطع كل هذه المسافة سوى الانتقام أو الإهانة، أو هل هو الحب؟

كوين محقة، فكر في نفسه، باستثناء آدم لم أكن أعرف شيئًا عن الحب. لم يكن لآدم أخطاء، كان بريئًا نقيًا ويسهل حبه. لو كان حيًا وكبر وأصبح ذا عيوب، علل بشرية كالخداع والحمق والجهل، هل كان سيسهل حبه أو هل سيكون جديرًا بالحب؟ ما هو هذا الحب الذي يطلب ملاكًا وملاكًا فقط للالتزام به؟

بعد هذه الفكرة، واصل بوكر تأنيب نفسه.

ربما كانت برايد تعرف عن الحب أكثر منه، كانت على الأقل راغبة في اكتشافه، وأن تفعل شيئًا أو تغامر بشيء وتتحمل عواقبه. أنا لم أخاطر بشيء، كنت أجلس على عرش وأحدد علامات الخلل في الآخرين. كنت مأخوذًا بذكائي والمبادئ الأخلاقية التي أعتنقها إلى جانب التعجرف الذي يلازمها. ولكن أين الأبحاث الذكية والكتب التثقيفية والمقطوعات التي حلمت دومًا بإنتاجها؟ ليست في أي مكان. كنت أكتب ملاحظات عن مساوئ الآخرين. كان ذلك سهلًا، سهلًا جدًا، ولكن ماذا عن مساوئي؟ كنت أحب مظهرها ومضاجعتها وأنها ليست متطلبة. لقد رحلت عند أول خلاف كبير ينشب بيننا. كان

القاضي الوحيد بالنسبة لي هو آدم الذي، كما قالت كوين، لا بد أنه تعب من كونه عبئي وصليبي.

دخل مقطورته على أطراف أصابعه، مصغيًا إلى شخير برايد الخفيف واسترجع دفترًا ليكتب على الورق ثانية ما لم يستطع قوله.

لم أعد أفتقدك يا آدم بل أفتقد العاطفة التي خلفها موتك شعور قوي جدًا عرّفني لكنه محاك تاركًا لي غيابك فقط لأعيش به مثل الصمت في الناقوس الياباني الذي كان أكثر إثارة من أي صوت يليه أيًا كان.

أعتذر لأني استعبدتك لأقيد نفسي بوهم السيطرة والإغواء الرخيص للسلطة. لا يمكن لسيد أن يفعل بعبيده أسوأ مما فعلت.

وضع بوكر دفتره بعيدًا. طوقه الظلام وسمح للهواء الدافئ أن يهدئه بينما تطلع شوقًا إلى الفجر.

***

استيقظت برايد بنور الشمس من نوم بلا أحلام، أعمق من الثمالة وأعمق من أي شيء تعرفه. وبعد أن نامت لساعات طويلة كانت تشعر الآن بأكثر من الراحة والتحرر من التوتر؛ شعرت بالقوة. لم تنهض مباشرة وبدلًا من ذلك ظلت في فراش بوكر، مغمضة عينيها مستمتعة بحيوية جديدة ووضوح متقد. وبعد أن اعترفت بآثام لولا آن، شعرت كأنها ولدت من جديد، ولم تعد مجبرة على أن تعيش ثانية، لا، أن تديم احتقار أمها وهجر والدها. انتشلت نفسها من حلم اليقظة الذي ابتكرته ورأت بوكر يشرب القهوة عند الطاولة المنخفضة. كان يبدو

جديًا أكثر من كونه عدائيًا، فانضمت إليه والتقطت شريحة من اللحم المقدد من طبقه وأكلتها ثم قضمت من شريحة خبزه.

سأل بوكر: «تريدين المزيد؟»

«لا، لا شكرًا»

«قهوة؟ عصير؟»

«حسن، قهوة ربما»

«طبعًا»

دعكت برايد جفنيها محاولة استذكار اللحظات التي سبقت نومها، وقد ساعدها التورم على صدغ بوكر الأيسر «هل نقلتني إلى السرير بذراعك السليمة فقط؟»

قال بوكر «حصلت على مساعدة».

«ممن؟»

«كوين».

«يا إلهي. لا بد أنها تظنني مجنونة».

«أشك في ذلك» وضع بوكر كوب القهوة أمامها «إنها أصلية، ولا تميز المجانين»

نفخت برايد بخار القهوة بعيدًا «جعلتني أرى الأشياء التي كنت ترسلها لها. صفحات كتاباتك. لم كنت ترسلها إليها؟»

«لا أعلم. ربما لأنني كنت أحبها كثيرًا بما يكفي لئلا أرميها في سلة المهملات، لكن ليس بما يكفي لأحتفظ بها. أظنني أردتها أن تظل في

مكان آمن. كوين تحتفظ بكل شيء».

«حين قرأتها عرفت أنها كلها تتحدث عني، أليس كذلك؟»

«أوه نعم» قلب بوكر عينيه وسحب تنهيدة مسرحية «كل شيء يدور حولك عدا العالم والكون الذي يسبح فيه».

«هلا توقفت عن السخرية مني؟ تعلم ما أعني. كتبتها عندما كنا معًا، صحيح؟»

«إنها مجرد أفكار يا برايد، أفكار عما أشعر به أو ما أخافه، وغالبًا ما أؤمن به حقًا في حينه».

«أما زلت تؤمن أن الحزن يجب أن يشع كنجمة؟»

«نعم. لكن النجوم تنفجر وتختفي. ثم ما نراه حين ننظر إليها قد لا يكون هناك بعد الآن. قد يكون بعضها مات منذ آلاف السنين لكن ضوئها وصل إلينا الآن. تبدو المعلومات القديمة مثل الأخبار. وبالحديث عن المعلومات، كيف عثرت على مكاني؟»

«وصلتك رسالة، فاتورة مستحقة السداد، أعني من متجر تصليح الآلات الموسيقية. «ذي بون بالاس» فذهبت إليه».

«لماذا؟»

«لأدفع لهم أيها الأحمق، وهم أخبروني بمكانك. في هذا المكان الوضيع، كان لديهم عنوان تحويل البريد إلى ك. أوليف».

«دفعت فاتورتي وقطعت كل هذه المسافة لتصفعيني؟»

«ربما. لم أخطط لذلك. لكن علي القول إن الصفعة منحتني شعورًا طيبًا. على أية حال لقد جلبت لك بوقك، هل هناك مزيد من القهوة؟»

«جلبته؟ الترومبيت خاصتي؟»

«طبعًا، وقد أصلحوه أيضًا».

«أين هو؟ في منزل كوين؟»

«في صندوق سيارتي».

انتقلت ابتسامة بوكر من شفتيه إلى عينيه، كانت الفرحة على وجهه طفولية «أحبك! أحبك! أحبك!» صاح وجرى في الشارع متجهًا إلى الجاغوار.

***

لقد بدأ ببطء ونعومة كالعادة؛ خجولًا وغير واثق كيف ستمضي، متلمسًا طريقه بأصابعه منزلقًا بتردد في البداية لأنه لا يعرف إلام سيفضي، ثم يكتسب الثقة منتشيًا بالهواء وضوء الشمس لأنه لم يكن هناك أي منهما في الحشائش المتموجة.

لقد كان يختبئ في الفناء الذي كانت تحرق فيه كوين نوابض سريرها للتخلص من أعشاش حشرات الفراش السنوية، وقد انتقل الآن سريعًا لامعًا بين الحين والآخر في لسان من اللهب الأحمر الرفيع، ثم يخمد لدقائق قبل أن يثب ثانية أقوى وأسمك، وقد أصبح هدفه وطريقه أكثر وضوحًا، شجرة صنوبر أخاذة ومد جذوره قرب عتبتي المقطورة الخلفيتين. ثم الباب، صنوبر أكثر حلو وناعم، وأخيرًا كان هناك فرحة لعق النسيج المزخرف من الدانتيلا والحرير والقطيفة.

حين وصل برايد وبوكر هناك، كان حشد صغير من الناس يقف أمام منزل كوين، العاطلون والأطفال والمسنون. كان الدخان يتسلل

من العتبات وإطار الباب عندما دخلا، بوكر أولًا ثم برايد خلفه. انبطحا على الأرض لأن الدخان كان أخف، وزحفا إلى الأريكة التي كانت كوين ما تزال مستلقية عليها، فاقدة الوعي بإغواء ابتسامات الدخان دون حرارة. تمكن بذراعه السليمة وذراعي برايد من سحب المرأة فاقدة الوعي إلى الأرض وجرها إلى الحديقة الأمامية الصغيرة وعيونهما تدمع وحنجرتاهما تسعلان.

«أكثر! تقدما أكثر!» صاح واحد من الرجال الواقفين هناك «قد ينفجر المكان بأكمله».

كان بوكر يريد أن يسمح للهواء بالمرور إلى فم كوين لتسمعه، وفي النهاية أثارت أصوات صفارات سيارة الإطفائية والإسعاف القادمة من بعيد الأطفال بقدر ما فعلت صورة جمال النار المزمجرة. فجأة انفجرت شرارة كانت تختبئ في شعر كوين وصارت لهبًا ملتهمًا كتلة الشعر الأحمر في لمح البصر، وكان ذلك وقتًا كافيًا لتخلع برايد قميصها وتستخدمه لإخماد نار الشعر. عندما مزقت القميص الذي لوثه السخام والدخان بكفين واخزتين، عبست عند رؤية خصال من الشعر يصعب تمييزها من فروة الرأس التي تقرحت سريعًا. كان بوكر يهمس طوال الوقت» نعم نعم هيا يا حبيبتي، هيا يا سيدتي» بدأت كوين تتنفس على الأقل كانت تسعل وتبصق وهي علامات مهمة أنها على قيد الحياة. حين توقفت سيارة الإسعاف أصبح الحشد أكبر وبدا بعض المتفرجين متحنطين لكن ليس لمنظر المريضة التي نقلت إلى الإسعاف، كانوا يركزون بعيون متسعة على نهدي برايد الجميلين المنتفخين، ومهما بدت سعادة المتفرجين كبيرة لم تكن شيئًا إلى جانب سعادة برايد الكبيرة، فأجلت قبول البطانية التي وضعها عليها رجل الإسعاف إلى أن رأت النظرة على وجه بوكر.

لكن كان من الصعب كبح غبطتها، رغم أنها كانت تشعر بالخجل قليلًا من توزيع اهتمامها بين المنظر الحزين لكوين في الجزء الخلفي من سيارة الإسعاف والعودة السحرية لنهديها الكاملين.

ركض برايد وبوكر إلى الجاغوار ولحقا بسيارة الإسعاف.

حين أدخلت كوين إلى المستشفى كانت برايد تقضي النهار معها وبوكر يقضي الليل، ومضت ثلاثة أيام قبل أن تفتح كوين عينيها. كان رأسها مضمدًا لكنها كانت فاقدة للإحساس ولم تميز أيًا من منقذيها، وكل ما استطاعا فعله مراقبة الأنابيب الموصولة بالمريضة، أحدها صافٍ كالزجاج ينحني مثل عروق الغابة المطرية، والأخرى رفيعة مثل سلك الهاتف، وكلها تابعة لواحد له شكل زهرة الياسمين البري الأبيض تغطي الغرغرة الناعمة من شفتيها.

كانت هناك خطوط من الألوان الأساسية تتحرك على شاشة فوق سرير المستشفى، وأكياس شفافة فيها ما يشبه الشامبانيا بلا فقاعات ينقط في عرق يغذي ذراع كوين المترهلة. ولأنها لم تكن قادرة على النهوض لاستخدام المبولة، كانت تنظف وترطب وتلف ثانية، وكل هذا تفعله برايد التي لا تثق بالأيدي اللامبالية للممرضات، وكانت تغسل جزءًا من جسدها في كل مرة وتحرص على أن تغطي جسد المرأة في مواضع معينة قبل التنظيف وبعده. كانت تترك قدما كوين دون أن تمس لأن بوكر حين يريحها في المساء كان يصر، مثل التناول اليومي في عيد الفصح، على واجب تولي فعل الإخلاص ذلك، كان يعتني بالأظافر ويمدد الصابون على قدمي كوين ثم يغسلهما، وأخيرًا يدلكهما ببطء وبإيقاع بكريم له رائحة زهر الخلنج. كان يكرر الأمر نفسه مع يدي كوين، لاعنًا نفسه للخلاف الذي نشب بينهما في حوارهما الأخير.

لم يتحدث أي منهما خلال هذا الغسل، وباستثناء همهمات برايد، كان الهدوء مثل بلسم يحتاجانه. كانا يعملان معًا مثل زوجين حقيقيين، دون أن يفكرا بنفسيهما بل بمساعدة شخص آخر. كان الجلوس بين أشخاص آخرين في غرفة الانتظار في المستشفى دون أن يفعلا شيئًا سوى القلق تعذيبًا، وكذلك كان التحديق بعجز بالمريضة ملاحظين كل ململة أو نفَس أو تغير في الجسد المسجى. وبعد ثلاثة أيام من الانتظار التي يقطعها محاولاتهما لتقديم الراحة ما أمكنهما، تحدثت كوين، كان صوتها خشنًا عاجزًا وغير مفهوم عبر قناع الأكسجين.

ثم أزيل قناع الأكسجين ذات مساء في وقت متأخر وهمست كوين: «هل سأكون بخير؟»

«بلا شك، بلا شك على الإطلاق» مال نحوها وقبل أنفها.

لعقت كوين شفتها الجافة وأغلقت عينيها ثانية وأخذت تشخر.

عندما عادت برايد لتريحه وأخبرها بما حدث، احتفلا بتناول الإفطار معًا في مقصف المستشفى، طلبت برايد حبوب الإفطار وبوكر عصير برتقال.

رفع بوكر حاجبيه «ماذا عن عملك؟»

«ماذا عنه؟»

«أسأل فقط يا برايد، حديث إفطار، هل تعرفين؟»

«لا أعلم شيئًا عن عملي ولا أبالي. يمكنني العثور على عمل آخر».

«أوه، حقًا».

«نعم. وماذا عنك؟ ستعمل بقطع الخشب إلى الأبد؟»

«ربما وربما لا. سينتقل الحطابون بعد أن يدمروا الغابة»

«حسن لا تقلق بشأني».

«لكني أفعل».

«منذ متى؟»

«منذ أن كسرت زجاجة الجعة على رأسي».

«آسفة».

«بلا مزاح، وأنا أيضًا».

وضحكا.

بعيدًا عن سرير كوين في المستشفى، مرتاحة بتقدمها لكونها في مزاج جيد إلى حد ما، كانا يسليان نفسيهما بالمزاح مثل زوجين قديمين.

فجأة، كما لو أنه نسي شيئًا، فرقع بوكر بأصابعه، ثم وضع يده في جيب قميصه وأخرج قرطي كوين الذهبية، لقد خلعوهما ليضمدوا رأس كوين. لقد كانا في كيس بلاستيكي صغير موضوع في درج طاولتها الجانبية.

قال: «خذي هذين. كانت تحبهما وستسعد لو وضعتهما إلى أن تتعافى».

لمست برايد شحمتي أذنيها متحسسة عودة الثقبين الصغيرين وبكت وهي تبتسم.

قال بوكر: «اسمحي لي» وأدخل السلك في شحمة أذن برايد قائلًا «جميل أنها كانت تضعهما عندما احترق المكان لأنه لم يبق شيء على

الإطلاق. لا الرسائل ولا دفتر العناوين، لا شيء، كل شيء احترق، فاتصلت بأمي لتخبر أبناء كوين».

«هل يمكنها التواصل معهم؟» قالت برايد وهي تميل رأسها إلى الأمام وإلى الخلف لتستمتع بالقرصين الذهبيين. كان كل شيء يعود، كل شيء تقريبًا.

أجاب بوكر: «بعض منهم. ابنة في تكساس، طالبة طب. يمكن العثور عليها بسهولة».

قلبت برايد حبوب الإفطار وتذوقت ملعقة ووجدتها باردة «أخبرتني أنها لا تراهم، لكنهم يرسلون إليها المال».

«جميعهم يكرهونها لسبب أو لآخر. أعلم أنها هجرت بعضهم لتتزوج برجال آخرين، الكثير من الرجال الآخرين، ولم تأخذ الأطفال معها أو لم تستطع ذلك. حرص آباؤهم على ذلك».

قالت برايد: «أظنها تحبهم رغم ذلك. كانت صورهم تملأ المكان».

«حسن، ابن العاهرة الذي قتل أخي كان يحتفظ بصور ضحاياه في وكره اللعين».

«ليس الأمر نفسه يا بوكر».

«لا؟» ونظر خارج النافذة.

«لا، كوين تحب أبناءها».

«لكنهم لا يرون ذلك».

قالت برايد: «كف عن ذلك. لا مزيد من الجدالات الغبية عمن يحب من».

دفعت طبق حبوب الإفطار غلى وسط الطاولة وأخذت رشفة من عصيره «هيا أيها البغيض، لنعد ولنر كيف هي».

كانا سعيدين، وهما يقفان على جانبي سرير كوين، بسماعها تتكلم بوضوح وبصوت عال.

كانت كوين تحدق ببرايد وتتنفس بصعوبة «هانا، هانا. تعالي هنا يا حبيبتي هانا».

فسألت برايد: «من هي هانا؟»

«ابنتها، طالبة الطب».

«هل تظنني ابنتها؟ يا إلهي. إنه مفعول المخدر والأدوية كما أظن. هذه الأشياء تشوشها».

«أو تجعلها تركز» قال بوكر وقد خفض صوته.

«كان هناك أمر حول هانا، إشاعة في العائلة أن كوين تجاهلت أو لم تكترث بشكاوى ابنتها حول والدها، الآسيوي كما أظن أو الذي من تكساس لا أدري. على أية حال قالت إنه يلاطفها ورفضت كوين أن تصدق ذلك. لم يذب الجليد بينهما أبدًا».

«ما زال الأمر عالقًا في ذهنها».

«في أعمق من ذهنها» جلس بوكر في كرسي قرب قدم سرير كوين مصغيًا إلى نداءها المستمر، الذي صار همسًا، لهانا. «والآن حين أفكر بالأمر أفهم لم قالت لي أن أتشبث بآدم، لأبقيه قريبًا».

«لكن هانا ليست ميتة».

«هي كذلك بطريقة ما، على الأقل بالنسبة لأمها. رأيت تلك الصور

التي علقتها على الجدار، كانت تحتل المساحة كلها، إنها مثل نداء هادر. معظم الصور كانت لهانا، وهي طفلة، مراهقة، في حفل التخرج من الثانوية، تفوز بجائزة ما. إنها نصب تذكاري أكثر من كونها معرض صور».

انتقلت برايد إلى ما وراء كرسي بوكر وبدأت بتدليك كتفيه وقالت: «ظننت أن الصور كانت لكل أبنائها».

«نعم، بعضها. لكن هانا تسيطر». وضع يده على بطن برايد وترك التوتر الذي لم يعرف أنه مصاب به ينساب بعيدًا.

بعد أيام من التعافي المبهج كانت كوين ما تزال مضطربة لكنها تأكل وتتحدث. كان يصعب متابعة حديثها لأنه بدا متعلقًا بالجغرافيا، بالأماكن التي عاشت فيها، وحكايات موجهة لهانا.

كان برايد وبوكر سعيدين بتقييم الطبيب: «إنها تتحسن كثيرًا، كثيرًا» وارتاحا وأخذا يخططان ماذا سيفعلان بعد خروج كوين، يبحثان عن مكان يعيشون فيه هم الثلاثة؟ منزل متنقل أكبر؟ على الأقل حتى تتمكن كوين من الاعتناء بنفسها، ودون تفكير عميق قررا أن يعيشوا كلهم معًا.

رويدًا رويدًا أصبحت خططهم المشرقة للمستقبل القريب معتمة، وقد بدأت الخطوط ذات الألوان الكرنفالية بالتذبذب والانحدار، وكان انزلاقها مرقطًا بأجراس الطوارئ. أخذ بوكر وبرايد نفسًا ضحلًا حين انخفض تعداد كريات الدم وارتفعت حرارتها. هاجم المريضة فيروس خبيث التقطته من المستشفى، متسلل وخبيث مثل اللهب الذي دمر منزلها. تقلبت قليلًا ثم أبقت ذراعها مرفوعة عاليًا وأصابعها

تخمش محاولة صعود درجات السلم التي كانت تراه وحدها، ثم توقف كل هذا.

بعد اثنتي عشر ساعة ماتت كوين. كانت إحدى عينيها ما تزال مفتوحة، فارتابت برايد بالأمر. أغلقها بوكر وبعدها أغلق عينيه.

***

خلال الأيام الثلاثة في انتظار أن يصبح رماد كوين جاهزًا، تجادلا بشأن اختيار الجرة، كانت برايد تريدها أنيقة من النحاس، وفضل بوكر شيئًا صديقًا للبيئة يمكن دفنه ويغذي التربة بمرور الوقت. عندما اكتشفا أنه لا توجد مقبرة ضمن خمسة وثلاثين ميلًا، أو مكان ملائم في ساحة المقطورات لدفنها، فكرا بصندوق من الورق المقوّى لحمل الرماد الذي يمكن نثره في الجدول. أصر بوكر على أداء الشعيرة وحده بينما انتظرته برايد في السيارة. كانت تراقبه باهتمام وقلق وهو يسير باتجاه النهر حاملًا صندوق الرماد تحت مرفقه الأيمن والترومبيت يتدلى من أصابع يده اليسرى. فكرت برايد بأن الأيام الأخيرة، حين كانا يخططان ما سيفعلان، كانت لطيفة لأن تركيزهما كان منصبًا على شخص ثالث يحبه كلاهما. وتساءلت عما سيحدث الآن، حين لا يكون هناك سواهما أو إذا حدث ذلك؟ لم ترغب أن تكون بدونه أبدًا، لكن إن اضطرت لذلك كانت واثقة أن ذلك لا بأس به. المستقبل؟ يمكنها تولي شأنه.

كانت مراسم بوكر لإجلال كوين التي يحبها خرقاء رغم خشوعها؛ فقد كان الرماد متكتلًا يصعب نثره، وتكريمه الموسيقي ومحاولته عزف «كايند أوف بلو» كانت خارج اللحن غير ملهمة، فاختصرها وبحزن لم يشعر بمثله منذ وفاة آدم ألقى بالترومبيت في الماء الرمادي كما لو أن الترومبيت قد أفسد الأمر بدلًا منه هو. راقب البوق يطفو لوهلة ثم

جلس على العشب واضعًا راحة يده على جبهته. كانت أفكاره حادة وهزيلة، فلم يخطر له أبدًا أن كوين ستموت أو قد تموت. كان يفكر معظم الوقت الذي قضاه في رعاية قدميها والاستماع لأنفاسها بقلقه هو. كيف أصبحت حياته مشوشة، ماذا عن الاهتمام الذي قدمته له عمة يحبها والتي ماتت الآن بسبب لامبالاتها هي، هل هناك من ما يزال يحرق نوابض السرير بحق الجحيم هذه الأيام؟ وكيف أصبح مأزقه حادًا بالعودة المفاجئة للمرأة قضى معها وقتًا ممتعًا يومًا والتي تغيرت من بعد واحد إلى ثلاثة، فصارت متطلبة وذكية وجريئة. وما الذي جعله يظن أنه عازف ترومبيت موهوب يمكنه أن يحسن الدفن أو أن تلك الموسيقى يمكن أن تكون لغته في الذكرى وفي الاحتفال وفي تعويض الخسارة؟ لكم من الوقت دفعه جرح الطفولة بعيدًا عن تيار الحياة وموجتها؟ كانت عيناه تحرقانه لكنه لم يستطع البكاء.

كانت بقايا كوين الممسوسة بالنسيم الخفيف المرحب تنجرف أبعد وأبعد مع التيار، والسماء التي كانت نزقة جدًا لتفي بوعدها بضوء الشمس أرسلت رطوبة حارة بدلًا من ذلك. نهض بوكر، شاعرًا بوحدة لا تطاق وندم عميق، وانضم إلى برايد في الجاغوار.

***

كان الصمت في السيارة كثيفًا وقاسيًا، ربما لأنهما لم يبكيا ولم يكن لديهما شيء مهم لقوله، باستثناء أمر وحيد، أمر وحيد فقط.

أخذت برايد نفسًا عميقًا قبل أن تكسر الصمت القاتل، وقالت في نفسها إما الآن أو أبدًا.

قالت بصوت واضح وهادئ «أنا حامل» ونظرت للأمام مباشرة

إلى شارع التراب والحصى والمطروق بكثرة.

«ماذا قلت؟» بح صوت بوكر

«لقد سمعتني. أنا حامل وهو طفلك».

حدق بها بوكر طويلًا قبل أن ينظر بعيدًا باتجاه النهر حيث ما تزال نثرات من رماد كوين تطفو لكن الترومبيت اختفى. خطر له واحد بالنار وآخر بالماء، اثنان مما أحبهما بعمق رحلا. لم يستطع خسارة ثالث، فاستدار بلمحة من ابتسامة لينظر ثانية إلى برايد.

قال: «لا. إنه طفلنا».

ثم ناولها اليد التي كانت تتوق إليها طوال حياتها، اليد التي لم تكن بحاجة لكذبة لتنالها، اليد التي تهتم بها وتثق، في مزيج يسمونه الحب الطبيعي. مسدت برايد راحة يد بوكر ثم شبكت أصابعها بأصابعه. قبلا بعضهما بلطف قبل أن يميلا إلى الوراء على مسندي الرأس ليسمحا لعموديهما الفقريين بالغوص في المقاعد الناعمة من جلد البقر. بدأ كل منهما بتخيل ما سيكون عليه العالم المستقبلي وهما ينظران عبر الزجاج الأمامي.

لم يمر بهما طفل وحيد يتجول حاملًا صنارة صيد السمك ويلمح الراشدين في السيارة الرمادية المغبرة، لكن لو حدث ذلك فقد يلاحظ الابتسامات الواسعة للثنائي، وكم كانت عيونهما حالمة، لكن العالم لن يهتم بسبب هذه السعادة المشرقة.

طفل. حياة جديدة. محصن من الشر والمرض، محمي من الاختطاف الضرب والاغتصاب والعنصرية والإهانة والأذى وكراهية الذات والهجر. خال من الأخطاء. كل الصلاح. بلا نقمة.

هذا ما آمنا به.

سويتنس

أفضّل هذا المكان – دار وينستون– على دور العناية الكبيرة الباهظة خارج المدينة. داري صغيرة وودودة وأرخص وفيها ممرضات على مدى الأربع والعشرين ساعة وطبيب يأتي مرتين أسبوعيًا. أنا في الثالثة والستين فحسب– صغيرة جدًا لأكون في دار رعاية– لكني أصبت بمرض مخدر في العظام ولذا كانت الرعاية الجيدة أمرًا ضروريًا. إن الضجر أسوأ من الوهن والألم، لكن الممرضات لطيفات. قبلتني واحدة على وجنتي قبل أن تهنئني بعد أن أخبرتها أنني سأصبح جدة، كانت ابتسامتها ومجاملاتها تناسب شخصًا سيتوج.

أريتها الملاحظة على الورق الأزرق التي وصلتني من لولا آن. حسن، وقعتها باسم «برايد» لكني لم ألق بالًا لهذا أبدًا. بدت كلماتها مستهترة «خمني ما الأمر يا س. أنا سعيدة جدًا لأخبرك بهذا النبأ، سيصبح لي طفل. أنا متحمسة جدًا وآمل أنك كذلك» أفترض أن الحماس كان للطفل وليس لوالده لأنها لم تذكر شيئًا عنه على الإطلاق. أتساءل إن كان أسود بقدرها، إن كان كذلك فليس عليها أن تقلق مثلما فعلت. تغيرت الأمور قليلًا عما كانت عليه في شبابي. فالسود المزرقّون يظهرون الآن على التلفاز وفي مجلات الأزياء والإعلانات التجارية

ويمثلون في الأفلام أيضًا.

ليس هناك عنوان على المغلف، لذا أظنني ما زلت الأم الشريرة وسأعاقب حتى يوم موتي لقيامي بتربيتها بطريقة حسنة النوايا وفي الواقع كانت ضرورية. أعرف أنها تكرهني، فقد تركتني وحيدة في تلك الشقة البغيضة عندما استطاعت ذلك. لقد ابتعدت عني قدر استطاعتها، وتأنقت وحصلت على عمل رائع في كاليفورنيا. كانت تبدو جميلة في آخر مرة رأيتها فيها، ونسيت أمر لونها. ومع ذلك كانت علاقتنا بالنسبة إليها مقتصرة على إرسال المال. لا بد أن أعترف أنني ممتنة للمال الذي ترسله لأنني لا أضطر للتوسل من أجل بعض الإضافات كما يفعل بعض المرضى الآخرين. إن أردت طقم جديدًا من ورق اللعب يمكنني الحصول عليه ولا أحتاج أن ألعب بتلك القذرة المهترئة في الردهة. ويمكنني شراء بعض دهانات الوجه الخاصة، لكني لست حمقاء. أعرف أن المال الذي ترسله هو وسيلة كي تبقيني بعيدة ولترضي ما تبقى لديها من ضمير.

إن كنت أبدو مزعجة وغير ممتنة فإن جزءًا من ذلك يعود إلى الندم. كل الأمور الصغيرة التي لم أفعلها أو فعلتها على نحو خاطئ. أذكر عندما نزل دم طمثها الأول وكيف كانت ردة فعلي، أو المرات التي كنت أصرخ فيها عليها حين تتعثر أو توقع شيئًا ما، وكيف صرخت بها لأمنعها من الوشاية بمالك البناية الكلب. حقًا، لقد كنت غاضبة جدًا، بل منبوذة بسبب بشرتها السوداء عندما ولدت في البداية فكرت بـ.....لا، علي أن أبعد هذه الذكريات السيئة بسرعة. بلا معنى. أعرف أنني فعلت الأفضل من أجلها حسب الظروف. عندما هجرنا زوجي، كانت لولا آن عبئًا ثقيلًا لكني حملته جيدًا. نعم، لقد كنت قاسية معها، أنت تعرف

ذلك. بعد أن حظيت بالاهتمام بعد محاكمة أولئك المعلمين، أصبح من الصعب السيطرة عليها. حين أتمت الثانية عشرة واقتربت من الثالثة عشرة كان علي أن أصبح أكثر قسوة، فقد كانت تجيبني وترفض أكل ما أطهو وتزين شعرها. حين كنت أضفره لها كانت تذهب غلى المدرسة وتحله، لا يمكنني السماح لها أن تصبح سيئة، أنهيت الأمر وحذرتها من الأسماء التي ستدعى بها. ومع ذلك لا بد أن شيئًا من تعليمي قد أفادها، ألا ترى إلام تحولت الآن؟ فتاة عاملة ثرية، هل تنكر ذلك؟

وهي حامل الآن، نقلة جيدة لولا آن. إن كنت تظنين أن الأمومة تتعلق بالترنيمات والجوارب والحفاضات فستكون صدمتك عظيمة، عظيمة. أنت وحبيبك أو زوجك أو العابر الذي بلا اسم. تخيلي أووووه! طفل! كوتشي كوتشي كوو!

أصغي إلي. إنك على وشك أن تكتشفي ماذا يتطلب أن تصبحي أمًا وكيف هو العالم، وكيف يسير وكيف يتغير.

حظًا طيبًا، وليكن الرب في عون الطفلة.

إنه ليس خطئي، لذا لا يمكنك لومي. لم أفعلها ولا أعرف كيف حدث ذلك. لم يستغرق الأمر أكثر من ساعة بعد أن سحبوا الطفلة من بين رجليّ لأعرف أن هناك خطأ ما، خطأ جدًا. كانت سوداء جدًا لدرجة أرعبتني، سوداء مثل منتصف الليل، سوداء مثل سودانية. لي بشرة فاتحة وشعر ناعم كنت من النوع الذي نسميه خلاسية، وكذلك كان والد لولا آن. ليس هناك أحد في عائلتي له بشرة بهذا اللون. أظن أن لون القطران هو الأقرب، ومع ذلك لم يكن شعرها يتماشى مع البشرة، لقد كان مختلفًا، ناعمًا لكنه متموج مثل تلك القبائل العارية في أستراليا. قد تظن أنها وراثة راجعة، لكن لمن؟


ISBN 978-9938-880-57-1

